هيكل النفس

دراسة في النفس الإنسانية

بسم الله الرحمن الرحيم. أسلمت لرب العالمين.
دراسة في النفس الإنسانية.

(البداية)

إن لم أعرف نفسي فلا يمكن أن أعرف شيء، لأني إنما أعرف بنفسي، فإن لم أفهم كيف تتكون المعرفة عندي فهل يمكن أن أطمئن إلى أي معرفة أو عادة عندي، وليس لي غير نفسي، هي الشيء الوحيد الذي لا يفارقني، هي أنا، فلا أهتم بغيرها في المقال الأول الأصلي.

ولكن كيف يمكن أن أدرس نفسي، وقبل ذلك ما معنى دراسة النفس، هل هي دراسة لماهيتها، أم لكيفية تشكلها وتطورها، أم لآثارها وقواها، أم كل ذلك معاً، فإن كان كل ذلك فمن أين أبدأ.

هل يمكن أن أدرس نفسي بنفسي، قياساً على رؤية الإنسان لوجهه فإنا نعلم باستحالة ذلك إلا بأحد طريقين، إما بالمرآة العاكسة أو أن يصف لنا شخص آخر وجهنا لنا فنعرف بذلك ملامحنا، والطريقة الثانية أكثر عرضة لعدم الدقة من الأولى، لأن وصف الشخص لنا يتم بكلمات قد يكون معناها في عقله غير معناها عندنا ولذلك وغيره قد لا نفهم منه نفس ما يريد أن يفهمنا إياه، وأما الطريقة الأول فيجب أن تكون المرآة تامة الصفاء والاستواء، ويكون الناظر سليم العينين، ويكون ثمة نور حسن بين العين والمرآة ليتم النظر ويظهر الوجه كما هو، وبالجدل المتعمق قد تنقض حتى هذه النظرية، لأنه بحسب نوع النور يختلف ظهور الوجه، وبحسب العين كذلك تختلف الرؤية، إذ نوع من العيون يرى الشيء بطريقة ووصف ما، وعين أخرى قد ترى نفس هذا الشيء ولكن له صفة أخرى، فإذن هذا القياس ليس تام الدقة فلا نأخذ به كله على هذا الوجه.

لا أحد يعرف نفسي كنفسي، لأنه ليس للآخرين غير المظاهر، فلا علم لهم بما يجري داخلي، أما أنا فأعلم أو أستطيع أن أعلم لماذا عملت ما عملت، وبناء على ذلك فلا تصح دراسة علم النفس إلا من إنسان درس نفسه هو، أولاً. لأن نظره في نفوس الآخرين ليس تام الحياة والدقة، فقد يرى رجل يعمل عملاً ما، كان هو نفسه قد عمله من قبل، فيقيس أو يسقط نيته هو على نية هذا الرجل الآخر، ويدعي أن نية الرجل الآخر كانت كذا. وحتى لو سأل الرجل الآخر "لماذا فعلت ما فعلت" فقد يكذب أو يسيء الوصف أو يكذب من حيث يظن أنه صادق ويصف الواقع، وحتى الظالم يظن نفسه عادلاً في أكثر الأحيان، بل يوقن أنه كذلك، فإذا لعن أحد الظالمين أمامه، قال "نعم، لعنهم الله".

*فإذن لا ثقة إلا بأن أدرس نفسي بنفسي، وأذكر حالي كما هو بدون مداراة أو تورية.

ما الغاية من دراسة النفس، الشعور الجميل، لأن محصلة كل معرفة وعمل هي أن نعشر بشعور جميل، هذا ما نسعى إليه، وقد نعمل عملاً يجعلنا نشعر بشعور سيء ولكن إنما نعمله لأننا نعتقد أنا إن عملناه سنشعر بشعور جميل بعد حين، كالذي يجوع علماً أنه سيصبح جميل الهيئة مما يجعله يشعر بشعور جميل. فليست الغاية من كل شيء إلا الشعور الجميل.

فبما أن هذه هي الغاية فهل نجعل دراستنا للنفس محكومة ومقيدة بها، قد يحجبنا هذا القيد عن الكثير من المعرفة، والتي قد تنفعنا لاحقاً من حيث لا ندري الآن، ولكن من الجهة الأخرى فإننا إذا عرفنا كيفية تحصيل الشعور الجميل فماذا نريد بعد ذلك، لماذا نعقد الأمور ونصعب الحياة على أنفسنا، البساطة من أصول السعادة إن لم تكن أصلها، فعلى هذا يجب أن نبقي بحثنا وتحليلنا في نطاق الواقع والبساطة، ولا نخوض فيما لا فائدة من ورائه إلا كثرة الكلام وتعقيد الحياة.

(ما هي النفس)

نحن لا نرى من أنفسنا إلا هذا الجسم والأفكار التي تحركنا، ومن حال الجسم ونتائج الأفكار يتولد عندنا شعور ما، هذا الشعور إما أن يكون مرضياً لنا أو لا، الحالة الأولى نسميها سعادة والثانية شقاء. وبحسب مرات السعادة والشقاء تكون نفسياً في لحظة من اللحظات، فمثلاً في ١٠٠ يوم، إن مرّ الإنسان بسبعين حالة سعادة وثلاثين حالة شقاء فنفسه سعيدة، وهكذا، أيهما يغلب يغلب.

فما هي النفس، هل هي غير مجموع هذا الجسم والأفكار والمشاعر، فالنفس ما هي إلا محل يتأثر بهذه الثلاثة عوامل فتتكون نفسية الإنسان في فترة معينة، فإذا غير من جسمه وأفكاره ومشاعره تغيرت نفسيته، وهذا مشاهد في الواقع.

فنحن نرى الرجل السمين البشع، الذي كل أفكاره هي عن اللعب والطعام والكسل، ماذا تكون نفسيته مقارنة مع رجل جميل الهيئة وسيم، أفكاره متوازنة بين طلب المعرفة والروحانية وخدمة المجتمع. تصور الآن لو أصبح السمين مثل الجميل، هل ستبقى نفسيته كما هو، بالطبع لا.

والمشاعر هي الحالة النفسية الناتجة عن حال الجسم والفكر، *فإذن ليست دراسة النفس إلا دراسة للجسم والفكر، لغاية الشعور الجميل.

ماهية الجسم لا خلاف عليها، فهي ظاهرة للعيان. أما ماهية الفكر وشؤونه فهنا سينشأ جدل كبير لخفاء أمره. وأما ما هو الشعور الجميل فأيضاً منشأ للجدل لأن ما يقول عنه أحد أنه شعور جميل قد يراه غيره أنه قبيح وتعيس، فمثلاً قد يشعر رجل بشعور جميل عندما يعطي ماله لفقير، ولكن رجل آخر قد يرى هذا من الغباء والسفاهة، لعله لأنه بخيل، أو لأنه يستهزئ بهؤلاء الذين يزعمون أن ثمة إله سيرد لهم عشرة أضعاف ما أنفقوه، ولأسباب كثيرة، المهم أنه يشعر بشعور سيء تجاه هذا العمل الذي أنتج شعور جميل عند رجل آخر. وقل مثل ذلك في الذي يستمد الشعور الجميل من تعذيب النساء والأطفال، وهذا العمل قد يرى غيره أنه من أقبح الأمور في العالمين. *فإذن يوجد أمر وراء الشعور هو الذي يتحكم في الشعور. فيحب أن نعرف ما هو.

ونحن نرى أن نفس الشخص قد يستمد من عمل ما شعور جميل وبعد فترة من الزمن يصبح ينتج شعور سيء، كالذي يكون منهمك في الشهوات الجنسية وتعاطي المخدرات والسهر مع

الداعرات، إذا تاب واتبع دين روحي معين، وكان هذا الدين يدين هذه الأمال ويجعلها من أقبح الأعمال، فإنه ستتغير نظرته لهذه الأمور. ففي البداية كانت مصدر للسعادة وعدم تحققها كان مجلبة للتعاسة، والآن بعد أن رجع إلى ربه كما يعتقد أصبح يشمئز من مجرد تصور حاله من قبل، بل لعله يرى أن شيطاناً كان يتحكم به في تلك الأيام السيئة التعيسة، لا ردّها الله.

جسمانياً الرجل كما هو، من حيث هو جسم، نعم أعماله تغيرت، ولكن لماذا، لأنه أصبح له فكر غير فكره من قبل، فالفكر هو الشيء الذي وراء الشعور، والجسم بنفسه حيث لا يتحرك إلا بإشارة أو أمر من الفكر، فنحن نرى أننا لا نتحرك إلى أمر إلا بأمر الفكر أو إشارة خفية، لأسباب كثيرة، لعل أهمها أننا نعتقد أن حركتنا هذه أحسن من عدم حركتنا، لأنها ستحقق لنا أمر يجلب شعور حسن، حتى أبسط الحركات لا نقوم بها إلا إن كنا نرى أنها ستجلب لنا حالة هي أحسن من عدم حركتنا. كرفع الرجل من الأرض ووضعها على السرير.

فإذن الفكر يقرر فيحرك الجسم أو يسكنه، فينتج شعور، وبما أن الشعور كما عرفنا مجرد نتيجة، والجسم لا يتحرك ولا يسكن إلا بأمر الفكر الصريح أو إشارته الخفية، فإذن لا يوجد غير الفكر من حيث الحقيقة، والدراسة النفس تصبح دراسة الفكر في جوهرها، لأنه لا يتغير شيء إلا بتغير الفكر، ولا نكون في حالة إلا بسبب الفكر، ولا يمكن أن نحسّن في شيء أو نعمل شيء إلا بأمر الفكر، *فإذن النفس هي الفكر.

(ما هو الفكر)
بما أن الأفكار هي سبب كل حركة وشعور، فلا يوجد أهم، بل لا يوجد غير دراسة الفكر وشؤونه.

الفكرة قد تكون تأمر بالحركة أو الشعور علانية أو خفية، علانية هو المعروف الظاهر لنا، كما لو سألت نفسك "ماذا أريد أن آكل" فتفكر ثم تقول "سآكل التفاح الأخضر" هذه الكلمة أو الأمر الفكري "سآكل التفاح الأخضر" هي الأمر العلني ومنه. وأما لماذا اخترت التفاح الأخضر بالذات، فيوجد عوامل كثيرج، أو أفكار كثيرة، قد لا تكون أنت نفسك على علم بها، أي ليست ظاهرة لك: كأن تكون مررت بالسوق قبل بضع ساعات ونظرت إلى امرأة جميلة تأكل التفاح الأخضر، وقد كنت تفكر في هذه المرأة الجميلة، وصورة التفاح الأخضر، الذي أصبح قريب من الجمال الذي ترغب في معانقته، في قلبك، ولذلك لما فكرت في الأكل سبقت فكرة التفاح الأخضر الأفكار الأخرى، كالموز أو التفاح الأحمر أو الأصفر.

وحقل الأفكار الخفية هذه هو أصل تسعة أعشار كل أقوالنا وأفعالنا، والعشر الأخير أيضاً متأثر بهذه الأفكار الخفية، بل هو ليس إلا مظهر لهذه الأفكار الخفية، والتي لا نشعر عادة بكيفية تشكيله لأقوالنا وأفعالنا، لشدة خفائها عن تفكيرنا العلني ولعمقها الشديد في الذاكرة ولعفويتنا وحبنا لتسهيل الأمور وغفلنا عن التأمل العميق في قلوبنا.

وتتكون هذه الأفكار الخفية من كل شيء لمسناه وسمعناه ورأيناه، فهو يشمل كل تجاربنا في الحياة، ومعرفتنا بتجارب الآخرين هو أيضاً من تجاربنا ويدخل ضمن ما سمعناه ورأينا، فقد نسمع قصة عن عالم بذل مجهوداً عظيماً ليتعلم مسألة معينة، فيؤثر ذلك فينا ولو بعد سنين فترانا لا نبالي ببذل الجهد العظيم من أجل طلب المعرفة، ولو تتبعنا سبب ذلك لوجدنا أن هذه القصة كانت من أهم أسباب ذلك مثلاً، لكون صاحب القصة قد ذكر بتعظيم وتبجيل من الحاضرين، فأردنا نحن أن ننال مثل هذا التعظيم والتبجيل، فأصبح هذا البطل وجهاده سبب لجهادنا، وهكذا وبخفاء شديد تؤثر علينا تجاربنا كلها. وقل مثل ذلك في رؤية حدث معين وقع لشخص آخر. وقل مثل ذلك في صبي حرقته النار عندما وضع يده عليها أو على قدر من حديد كان فوقها، فأصبح لما كبر يخشى الاقتراب من الناس ويخشى خوض تجارب ومغامرات جديدة ويريد أن يحسب لكل شيء قبل أن يفعله.

وفي بداية تكوين قلب الإنسان، عندما يكون غلام صغير، فإنه يتكون بحسب مجتمعه وما حوله، وبحسب حاله وظروفه التي نشأ عليها، ولنسمّ كل هذه العوامل بكلمة واحدة فنقول "الحالة النفسية الاجتماعية"، "النفسية" إشارة إلى هيئته، جميل أو غير جميل، فقير أو غني أو أقرب إلى ماذا، وهكذا. و"الاجتماعية" إشارة إلى دين أهله وبلدته ونظام الحكم الذي يحيا في ظله ومناخ بلدته ، بارد أم حار، صحراء أم على البحر أم مدينة وهكذا. ونسمي مجمل الأفكار الخفية التي تصبح فيه ب"القلب الأول".

*فإذن قلب الإنسان الأول يتكون بحسب الحالة النفسية والاجتماعية.

فعلى هذا كيف يمكنني الاطمئنان إلى أي شيء عندي، هل أستطيع أن أقول "إني أشعر بشعور جميل بسبب اعتقادي بهذه الأفكار، فلابد أن تكون أفكار صحيحة"، لا يصح، لأنه حتى لو نشأ الإنسان وسط الحمير والخنازير فسيصبح لو كبر يرى أن عادات الحمير والخنازير إلهية المصدر، إن كان سيعتمد على مبدأ الشعور الجميل، لأن الشعور الجميل هو عندما تحقق أو تعمل بحسب فكرة ما، وتكون عندك فكرة أخرى تقول لك، أنك إذا عملت بهذه الفكرة فسيحصل لك أمر ما، وكان عندك فكرة ثالثة تقول أن هذا الأمر من الجميل أن يكون عندك، فلذلك ستشعر بشعور جميل، سأضرب مثلاً لتوضيح الأمر أكثر.

المجتمع يعظم شأن الزاهدين النساك، هذه الفكرة الأول. من الجميل أن تكون معظماً من قبل المجتمع، الثانية. السفر إلى الشيخ الفلاني في أقصى البلاد والتعلّم منه يؤدي إلى فهم الزهد والعمل كالنساك. إذن الجهد المبذول في السفر يؤدي إلى شعور جميل، لعلمي أن ظني أني سأبلغ غايتي بعد الرجوع من هذا السفر وإتمام هذا الجهد.

المجتمع يعظم شأن الفسقة المترفين، الأولى. من الجميل أن تكون معظماً من قبل المجتمع، الثانية. الربا والغش والكذب يؤدي إلى تكوين ثروة كبيرة وبسرعة. إذن الربا والغش والكذب سينتجوا شعور جميل لأنهم وسيلة إلى غايتي المحبوبة لي. والوسيلة إلى المحبوب محبوبة.

في قلب الإنسان لا فرق لو رسخت فيه حالة الزاهد أو حالة الفاسق، لو خلا قلبه من كل أفكار الزهد والتقوى تماماً، وخلت من فكرة الله وعبادته والاهتداء بدينه والخشية من نار جهنم، لو خلا تماماً بحيث لم يسمع بها أبداً ولا مرة واحدة، وكان كل ما يسمعه ويراه هو تعظيم للشهوات والسيطرة والاستعلاء، لما تأثر بكل الفسق الذي يفعله ولو أصبح الشيطان ملاكاً بالنسبة له، ولما أصابه لا غم ولا شيء. بل لعله يجد الغم في التقوى.

وهذا ظاهر بنفسه، وأكبر دليل عليه هو مثلاً في شأن محرمات الزواج. ففي أهل الأديان المسماة بالسماوية، كاليهودية والإسلام مثلاً، أن يجامع الرجل أمه أو أخته يعتبر من القبح بمكان حتى أن مجرد تصور الفكرة قد يجعل المؤمن يصاب بالغثيان، وقد يتقيأ فعلاً من مجرد ذكر الحالة أمامه. ولكن يوجد من أهل أديان أخرى، أيضاً يعتقد أصحابها أن دينهم هو الحق والصراط المستقيم، وهؤلاء يرون اللذة في جماع الأم والأخت، وحتى في ديانات كمصر القديمة. وهؤلاء ليسوا همج وجهلة، بل من أهل أول الحضارات في العالم العالمية، وهؤلاء كان عندهم مثل نكاح الأخت أمراً طيباً لذيذاً لا عيب فيه. وكانوا يشعرون بشعور جميل ولاشك إذ هو حلال طيب لهم.

مرة أحرى، نفس الفعل وشعور مختلف، ويقع الناس في الوهم هكذا، يأتي المؤمن بالإسلام ويقول "نكاح الأم والأخت قبيح بنفسه، ودليل قبحه أنك تشمئز إذا تصورته، فلاشك إذن أنه قبيح عند الله" ولا يهم هذا المؤمن التقي أنه لو كان ملكاً فرعونياً في غابر الأزمنة لكان سيجامع أخته ولا اشمئزاز ولا يحزنون.

فالأعمال من حيث ذاتها كلها متساوية، الأفكار عن هذه الأعمال هي التي تجعلها جميلة أو سيئة، والاستدلال بالشعور ينم عن غباء المستدل.
وبما أن الأمر هكذا فيجب أن نعيد النظر في كل قلبنا الأول، لأننا لم نختر شيئاً منه، بل فرض علينا قسراً من المجتمع.

والسؤال الذي يجب أن نبحث فيه الآن هو: لماذا نأخذ فكرة وندع أخرى. إن قلنا "لأن الله هو الذي قال هذه الفكرة" فإذن نبقى حيث نحن لأن كل أحد يرى أن الله هو الذي قال له أفكاره، وإن أردنا أن نخوض في بحث أي دين أصدق من دين فلن نفرغ حتى نموت ولن نفعل شيء في حياتنا، وأبسط سبب لهذا هو أننا لن نستطيع أن تعلم كل لغات الكتب المقدسة حتى نفهمها حق فهمها، وندرك سر إعجازها، إذ كل أصحاب كتاب يرون كتابهم معجزاً شاملاً عميقاً يحتاج العالم الفذ إلى سنوات لفهم شيء منه، فكيف يمكن أن في بحق البحث وهذه هي الحال.

ولا نستطيع أن نقول "لأن هذه الفكرة تولد شعوراً جميلاً" لأن هذا جهل مكشوف كما عرفنا.

ولا نستطيع أن نقول "لأن هذه الفكرة ثابتة بالمنطق العقلي" لأن المنطق العقلي مجرد. تستطيع أن تثبت به أي شيء. وتستطيع أن تنقض به أي شيء. وحتى السارق المعتدي لو سألته "لماذا تسرق" لاستطاع أن يأتي بالحجج النقلية والعقلية لاثبات أن عمله مقدس، كأن يقول "لأن القرآن

يقول "وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم" فهذا الرجل الغني لي عنده حق في ماله، وأنا سألته أن يعطيني فأبى فأخذت حقي بالطريقة الممكنة لي" أو أن يقول "لو سرقت منه فإني أعلمه من الحكمة الإلهية، لأني بذلك أذكره أنه كما أن مالك قد يسرق منك فذلك كل ماله وأهلك قد يذهبون عنك، فلا تركن إلى الدنيا الملعونة، فإنما أنا أذكّر هذا الغني بواجب الله تعالى عليه وأذكره بسرعة زوال الدنيا" وهكذا لو شئت لذكرت سبعين حجة منطقية تثبت كون السرقة من أقدس الأعمال. فالاحتجاج بالمنطق هو احتجاج من لا منطق له.

فهل يوجد فكرة خاطئة. لو جيء لنا بسمّ قاتل، وقال لنا الرجل "هذا شراب لذيذ يقوي الجسم ويطيل من العمر"، هذه فكرة. فكرة ممكنة عقلاً، وقد نقتنع بها خاصة لو لم نكن نعرف شيء عن السم وكان هذا الرجل طبيب مشهور مثلاً معروف بسعة علمه ودقة وصفه، فلو صدقنا بصحة هذه الفكرة، واقتنعنا بها تمام الاقتناع، ثم شربنا هذا السمّ القاتل، هل ستمنع هذه الفكرة عمل السمّ فينا، لا ريب أن الجواب هو عدم جدوى الفكرة بل الموت هو المصير المحتوم، ومن شاء أن يجرب فليجرب.*فإذن يوجد فكرة صحيحة وفكرة خاطئة.

السراب ليس ماء في الحقيقة، وبالرغم من أن الظمآن قد يحسبه ماء، فكونه ماء فكرة اقتنع بها عقله، ولكن بعد أن وصل إليه لم يجده شيئاً، وبعد أن جرّب الناس الذهاب إلى هذا الذي حسبوه أنه ماء واقتنعوا بأنه ليس ماء، وحدثوا بذلك الناس، بعد ذلك أصبحنا نعرف أن السراب ليس ماء بالرغم من ظهوره كأنه ماء. *فإذن التجربة هي الوسيلة الوحيدة للتأكد من صحة فكرة وخطئها.

*فالفكرة التي لا يصدقها الواقع لا يمكن القطع بصحتها يقيناً.

لو قمنا نحن بتجربة ما، واستنبطنا منها أمراً ما، ثم أخبرنا غيرنا بهذه الحكمة أو المعرفة التي استنبطناها من واقع التجربة، فلم يصدقنا هذا الغير، فنحن نعلم يقيناً بصحة فكرتنا بالرغم من تكذيب الغير لنا. *فلذلك علينا أن لا نرفض معرفة الآخرين بحجة أننا لم نجرب ذلك بأنفسنا. ولكن هذا يفتح الباب لكل مدعي أن يقول ما يشاء، ويزعم أنه جرّب واستنبط، فما العمل.

يجب عليه أن يصف تجربته وما قام به، ثم نحن أمام أحد أمرين، إما أن نقبل منه، وإما أن نقوم بنفس تجربته. وإذا توفرت نفس الأسباب كلها تولدت نفس النتائج كلها،. فإن صدق في وصفه للتجربة التي قام بها فيجب أن تظهر لنا نفس النتيجة التي ظهرت له. *فالتجربة هي الشاهد للمعرفة.

وكما أنه بالتجربة تثبت المعرفة فكذلك بالتجربة تنقض المعرفة. فقد نقوم نحن، في زمن ما ومكان ما وفي حدود قدراتنا ومعرفتنا، بتجربة ما على شيء أو معلومة معينة، فيظهر لنا أن المعلومة صادقة، فيأتي من له قدرة أكبر من قدرتنا فيقوم بتجربة تثبت ضعف هذه المعلومة، فيجب الأخذ بالأقوى، والنقد الدائم هو البناء الدائم، فلا يوجد أمر يتعالى عن النقد، لأن النقد هو الوسيلة الكبرى لتطهير المعرفة وتوسيع الخبرة وبناء الحكمة. *فالتجربة والنقد هما آلتا المعرفة التامة.

والأمر الذي ليس له شاهد من هذا العالم الجسماني فهذا الأمر لا يقين تام فيه، لأنه لا يمكن الوصول إليه بالتجربة، فما أدرانا صدق صاحبه أو كذبه، وفي شؤون المعرفة لا يهم من قال لكن ما قيل، فالسم القاتل سيقتل ولو قال ذلك أكذب الكاذبين.

فإذن الفكرة الصحيحة هي ما كانت مستمدة من العالم الجسماني، ولم تثبت التجربة خطئها.

وعلى كل صاحب فكرة أن يصف تجربته التي بها توصل إلى فكرته، أو أن يصف طريقة يمكن بها كشف خطأ فكرته، كأن يقول "لو صار كذا ففكرتي باطلة". *وأحسن المفكرين من جميع بين الأمرين: وصف التجربة وطريقة لإثبات خطأ الفكرة.

وليس المقصود بالنقد التفكير العقلي المجرد، فإن هذا لا تثبت به معرفة لو كان هكذا وحده، لأن الجدل يفعل ما يشاء سيده، إن شاء خفض وإن شاء رفع. *وإنما النقد تحليل التجارب نفسها، سواء التي قام بها الشخص نفسه أو قام بها الآخرون.

وهذا الذي ذكرناه يخص علم السماء والأرض والبحر وما فيهم، كعلم الشمس والقمر والأشجار والأسماء وما شابه، أي كل ما هو غير الإنسان. فهذه يمكن إثبات صدق الفكرة من بطلانها بالتجربة، فماذا عن شؤوننا نحن، نحن المجتمع الإنساني، هل ينطبق نفس الأمر علينا أم لا أم ينطبق من بعض جوانبه.

(الفكرة الصحيحة بالنسبة للمجتمع الإنساني)
نحن لا نسمي الفكرة صحيحة أو حسنة إلا بحسب غايتنا. فكل ما قرب إلى الغاية فهو حسن وكل ما أبعد عنها فهو سيء، فالعمل الواحد قد يكون حسن اليوم سيء غداً إذا تبدلت الغاية، فمثلاً رجل نحيل يجب عليه أن يصبح سميناً وإلا سيموت، بالنسبة لهذا الإكثار من الطعام حسن، فإذا وصل إلى غايته، أي أن يصبح سميناً، وتعافى من مرضه، وثم نظر إلى نفسه ورأى أنه قبيح الهيئة وبذلك لن يستطيع أن يتزوج من المرأة التي يحبها، وبذلك يرمي بالغاية القديمة في سلة المهملات، ويضع غاية جديدة هي أن يصبح نحيلاً، وبذلك يمسي الإكثار من الطعام سيء، فكما ترى فإن *العمل بنفسه ليس حسن ولا سيء ولكنه بحسب النية والغاية منه. وهكذا كل الأمور.

فعلى هذا لا يهمنا هنا في هذه الدراسة أن نعرف أن نقيّم الفكرة الصحيحة والخاطئة بالمعنى الشائع للكلمة، ولكن معرفة أن *النفس تشعر أن الأمر صحيح إذا وافق الغاية التي تريد الوصول إليها، والعكس كذلك.

القتل حسن أو سيء : ليس هذا ولا ذاك، وقد يكون حسن لو كان دفاعاً عن النفس مثلاً، وسيء إذا كان لمجرد رؤية الناس تعاني وتبكي. ثم الدفاع عن الحسن حسن أم سيء: لا ذا ولا ذاك، ولكنه بحسب الغاية، فلو كانت الحياة، أي البقاء على قيد الحياة غاية، لانتاج علم معين مثلاً، فهو حسن، ولكن لو كان خشية من الموت الذي يؤدي إلى عذاب جهنم، فيصبح الدفاع عن النفس وهم

الهروب من الله هو الذي ولّده، فيصبح عمل فاسد لأنه قام على فكرة فاسدة وما بني على عمل باطل فهو باطل، ومثل هذه الأمور، فإذن *الفكرة مرتبطة بالغاية وهي التي تعطي الفكرة قيمة.

فعلى هذا، *تغيير أفكار الناس، أو السعي إلى تغيير أفكار الناس ونمط تفكيرهم لا يتم إلا بتغيير غاياتهم، غيّر الغاية تتغيّر الفكرة حتى لو بقيت، وبما أن النفس هي الفكرة، والفكرة هي الغاية، فإذن *النفوس بغاياتها.

(هل يوجد شيء مجرد اسمه "المرض النفسي")

إن الناس لما رأوا أن الجسم يكون نشيطاً لا يشعر بألم وقالوا أن هذا هو الجسم السليم، ولما أمسى متكاسلاً ولا يقوى على الحراك ويشعر بالآلام فقالوا هذا جسم مريض، قاسوا هذا على النفس فقالوا يوجد نفس سليمة ونفس مريضة، فهل هذا حكم مطلق ودقيق أم ماذا.

عندما يقال "مرض نفسي" فالمعبّر عنه هو شعور سيء قد يؤدي إلى عمل سيء، كالاكتئاب الذي قد يؤدي إلى الانتحار، أو الجنون الذي قد يؤدي إلى القتل. فلذلك سمّي الاكتئاب مرض نفسي والجنون كذلك في أكثر الأحيان. ولا يخشى أن الاكتئاب شعور، فقد يكون أغنى الناس وأصحهم جسماً وأجملهم وجهاً وأفصحهم كلاماً وأعلمهم بدقائق الكون والنفس ومع ذلك يكون مصاباً بالاكتئاب، بل الاكتئاب الشديد كذلك. وقل مثل ذلك في أكثر الأمراض النفسية، أو التي تسمى بذلك، والاكتئاب والجنون هما قمة الأمراض النفسية لننظر فيهما.

وبما أن الاكتئاب قد يؤدي إلى الإضرار بالنفس أؤ الغري، والإضرار بالنفس أو بالغير عمل سيء، فإذن الاكتئاب شعور سيء، ولذلك فهو مرض نفسي يجب التخلص منه.

تصور لو احتاجت الدولة والمجتمع إلى جنود انتحاريين في وقت حرب من الحروب، ولولا توفّر هؤلاء الانتحاريين فإنهم لن يستطيعوا صدّ هجمات الجيش المعتدي، وإذا انتصر العدو فإنه سيقتل المجتمع ويستعبد أهله، ففي مثل هذه الحال، والتي ما أكثر أن تحققت في الواقع، فهل الاكتئاب يعتبر مرض أم أن المكتئب سيعطى أوسمة الشرف من الدولة، لاشك أن الاكتئاب الشديد سيصبح فخر المجتمع لأنه سيولد جنود انتحاريين يئسوا من الحياة فلن يبالوا بأن يضحوا بأنفسهم في سبيل وطنهم أو هكذا يزعمون على الأقل.

وإن كان الذي يؤدي إلى القتل يعتبر مرض نفسي فإذن كل عظماء السياسة والحرب مجانين مرضى، ويدخل ضمن ذلك موسى ومحمد والخلفاء الراشدين وأمثالهم، فقادة المجتمع كلهم مجانين على ذلك، لأنه لا يوجد أحد منهم سيتردد في قطع رأس من يريد أن يزحزحه عن منصبه، أو يهدد أمن البلاد في زعمه.

لو تأملت مرة أخرى فسترى أن تصنيف شعور أو حالة على أنها مرض أيضاً ليس حكم مطلق ولكنه نسبي مقيد بغاية ما، بهدف ما. وعندما كان هذا الشعور سيمنع صاحبه من بلوغ هذه الغاية قال الناس أن هذا الشعور سيء وهو مرض.

ولو كان كل حزن وغم يعتبر مرض لما وجدنا بعض الناس يقدسون البكاء والحزن على موتى، بل يجعلون ذلك من أعظم أسباب الثواب ورفعة الدرجات.

والجنون ما هو إلا مخالفة عادات المجتمع، فكل من لا يقول بمثل قولك فهو مجنون عندك وتتفاوت درجة جنونه بمقدار اختلافه معك، فإذا صار ضدك تماماً فقد أصبح تام الجنون.

فإن كان المجنون من لا عقل له أو اختل عقله، فمن يعرف لنا ما معنى اختلال العقل، لأن أكبر العقلاء العلماء في المجتمع المتدين هو أغبى وأجهل الناس في المجتمع العلماني الملحد، وهو هو لم يتغير، كيف حكم عليه بأن عقله تام هنا، ثم في ساعات معدودة، أصبح فاقد العقل تماماً هناك، فهل العقل إلا أفكارنا نحن، من كانت فيه فهو عاقل ومن لم تكن فيه فهو جاهل.

فقد ينظر الفقيه العالم إلى صبيان يلعبون بالكرة ويضحكون فيقول عنهم "انظر هؤلاء لا عقل لهم، يضيعون حياتهم في اللعب" فإذا نظر صبي إليه وهو يدرس غارق في القراءة قد يقول عنه "انظر إلى هذا الذي لا عقل له يضيع حياته بالنفس والقراءة وهو صائر لا محالة إلى الموت وسيدع كل هذا ورائه، فأي فائدة في التعلم إن كنا سنذهب إلى دار لا حاجة للعلم الدنيوي فيها".

فإذن *المرض النفسي هو كل ما لا يوافق غايات المجتمع أو الشخص نفسه*، فالمرض في مجتمع قد يكون حالة روحية مقدسة في مجتمع آخر، وقد يحتاج العالم إلى العزلة ليخترع ثم يحتاج إلى الاختلاط ليعلّم ويرفه عن نفسه، فماذا تريد، كذا، فإذن كل ما يمنع كذا أن يتحقق في حياتك فهو مرض نفسي.

(أساس سعادة النفس)

الشعور الجميل هو الغاية، الغاية القصوى من كل علم وعمل. وبناء على ذلك نريد أن نعرف كيف يتولد الشعور الجميل.

عرفنا أن *الشعور الجميل يتولد عن تحقق رغبة أو اقتراب تحققها، ولا يوجد غير هذا. أيا كانت الرغبة عند الإنسان، فإن تحققها هو الشيء الوحيد الذي يولد فيه الشعور الجميل، وبعكس ذلك عدم تحقق الرغبة يولد شعوراً سيئاً مؤلماً في النفس، ضيق وسواد في عمق المرء بحسب أهمية الرغبة عنده، فعدم تحقق الرغبة العظيمة يولد شعور عظيم الألم، *فأهمية الرغبة هي التي بحسبها تكون درجة الشعور.

هل يوجد إنسان لا رغبة عنده: الذي لا رغبة عنده، أو يسعى لأن يكون خالٍ من الرغبات، هذا السعي هو بحد ذاته رغبة، ناتج عن رغبة في أن لا يكون عنده رغبة، ولذلك إذا وجد نفسه يميل إلى مال أو مدح فإنه يشعر بالذنب ويستغفر ويبكي لربه أو لأي عظيم يتوهمه، *فلا يمكن لأحد أن لا تكون عنده رغبة إطلاقاً، الوحيد الذي لا رغبة عنده هو الميت، ولكن طالما أن فيه نفس ففيه رغبة، *فالنفوس برغباتها.

فبما أن وجود الرغبة متحقق في النفس لامحالة، وبما أن الشعور الجميل مربوط بتحقق الرغبة، والشعور السيء المؤلم سيتولد إذا لم تحقق رغباتنا، فإذن يجب إذا أردنا السعادة الدائمة أن نجد رغبة يمكن تحقيقها بسهولة ولا يمكن تصور انقطاعها، وإذا أردنا سعادة عظيمة فيجب أن تكون هذه الرغبة لها أهمية عظيمة، *فالسعادة الدائمة العظيمة هي في الرغبة الدائمة العظيمة، فما هي هذه الرغبة.

بعد طول التأمل يظهر أنه يجب أن يكون في الرغبة هذه ثلاث صفات: أن لا تحتاج إلى مال، وأن لا تحتاج إلى ناس، وأن لا تحتاج إلى حركة حواس. أما المال فلصعوبة نيله وإمكان انقطاعه والحاجة إلى الاهتمام فيه، ولذلك نرى أن الذي لا يعرف السعادة إلا عن طريق المال هم من أشقى الناس في كثير من الأحيان، والاكتئاب والانتحار في الأغنياء لعله يكون أكثر منه في الفقراء. وأما الناس فقد ينشغلوا عنك. وقد يكرهوك. وقد يحسدوك ويغاروا منك فلا يحبوا صحبتك، والاعتماد على حضور الناس يعني أنك علقت فرحتك بإرادة ليست تحت حكمك، فماذا لو لم يرد من هم مصدر الفرحة أن يجتمعوا بك اليوم. وأما الحواس، فلعل الإنسان يكون أخرس فلو تعلقت السعادة بالكلام فهل كتب الشقاء على هذا الأخرس، وقل مثل ذلك في الأعمى الذي لا يرى السماء والأزهار، والأصم الذي لا يسمع التراتيل والموسيقى الرائعة، والمشلول الذي لا يستطيع لعب الرياضة، أو المسجون، أو الذي منعه أهله من الخروج من غرفته، وما أشبه ذلك. *هذا بحسب النظر العقلي هو الكمال. رغبة عظيمة لا تحتاج في تحقيقها إلى مال ولا ناس ولا حواس.

التأمل في الوجود اللانهائي، هذا أصل السعادة الكبرى الدائمة، ولا يوجد غير هذا. مجرد تأمل تحقق الحياة في الإنسان الحي، واستشعار السكون المحض الذي في عمق النفس، هذا التأمل المحض في الوجود اللانهائي، إذ ماذا يحد الوجود، إن كان وجود آخر فماذا يحد الآخر هذا، وعلى هذا الوجود لا نهائي، وإن كان العدم هو الذي يحد الوجود، فالعدم هذا نفسه موجود، وهو نفسه كيف يحدّ، والحد صفة الموجود، فإن كان عدماً فلا يمكن أن يحد أصلاً، فإذاً الوجود اللانهائي هو الحقيقة المطلقة التي في كل شيء وهي كل شيء، فعلى هذا، التأمل في هذه الحقيقة العظيمة الوحيدة هو أصل السعادة الدائمة، لأنها لا تحتاج إلى مال ولا ناس ولا حواس، وهي في النفس وحولها وهي كل شيء فلا يمكن تصور الانقطاع عنها أصلاً، وسأسميهاالتأله، أي الرغبة الكبرى، التأله، لأنها التأمل الجالب للحيرة الرائعة العجيبة. فإذن *التأله هو أصل السعادة الدائمة.

السعادة متعلقة بالرغبات، والرغبات كالشجرة، أصل وفروع، إذا انقطع الأصل سقطت كل الفروع، ولكن إذا انقطعت كل الفروع ثبت الأصل. فعندما تجعل التأله أصل رغباتك كلها تستطيع أن تتخذ من الرغبات الأخرى ما تشاء، فهي إن لم تتحقق، أي إن لم تتحقق هذه الرغبات الفرعية، لم يصبك سوء في شعورك. لأن أصلك في السعادة الكبرى بالتأله، فرغبة التأله لا تسحق كل الرغبات الأخرى، لا، ولكنها تكون كالأصل لهم، حتى تصبح لا تبالي إذا تحققت رغبة فرعية أولاً، أي لا تبالي بمعنى لا يصيبك شعور سيء، فحتى لو لم يكن عندك مال لتشتري الأمور الفخمة، أو أصحاب ليتسامروا معك هذه الليلة، أو حواس لترى النفوس مناظر الطبيعة، بالتأله ستشعر بكل شعور حسن يمكن تصور نفس تحصله من أي رغبة أخرى، ومن ذاق عرف.

وكل إنسان يجعل لنفسه أصل غير التأله لا محالة سيصاب بالألم من فشل تحقق رغباته أو على الأقل عدم تحققها كما تخيلها هو في رأسه، ولذلك نادراً ما ترى أحد جعل أصل رغباته في مال أو نساء أو شبان إلا وهو في ألم مستمر أو دوري يأتيه كل فترة وفترة يصيبه بالغم. حتى يدخل في أمور السوء والمخدرات أحياناً كثيرة. والتدخين الذي أصبح كشرب الماء، حتى أن الرجل ليتعجب إذا رأى من لا يدخن ويقول له "وكيف تستطيع أن تتحمل هذه الحياة" ويكون صاحب هذا التعجب من الشبان الجميلي الهيئة المنعمين في الدنيا، فما ظنك بغيره. وانظر إلى نفسك تعرف، فإني جربت وعرفت ذلك من نفسي، وإنما أصف حاصل تجربتي، ومن أراد أن يتأكد فليجرب بنفسه.

فإذن، بما أن علم النفس غايته الشعور الجميل، والشعور الجميل مرتبط بتحقق الرغبات، وأحسن الرغبات التأله، فعلم النفس والتأله لا يفترقان، والمتألهين هم خير علماء للنفس وأحسن من انتفع به.

(تشريح النفس)

أساس الخلق كله نور محض، أي قوة عاملة، فعالم الأجسام مثلاً يتكون كله من ذرات، كل شيء من أصغر ذبابة إلى أكبر مجرة، الأساس في تكوينهما أنهما من ذرات، وهذه الذرات مكونة من أجزاء، وهكذا في التحليل حتى نصل إلى أنه لا يوجد شيء غير طاقة محضة وذبذباتها وتموجاتها، فإذن التكوين كله نور.

وبما أن النفس أثر لحركات الأفكار والجسم والمحيط، فتشريح النفس هو معرفة تسلسل الأمر من الأعلى إلى الأسفل، مثل أن الفكرة تسبق الحركة الجسمية دائماً، سواء أكانت فكرة خفية أو علنية.

والتحليل النهائي يُظهر أن "تصور الكمال" هو محور حياة الإنسان، ومحور كل شيء يخصّه، وهو الدافع وراء كل شيء، وهو الغاية من كل شيء، وهو محل التغيير الأصلي. فلنبدأ في تحليل هذا العامل الأهم.

{ تصور الكمال } : كل عمل تقوم به، حتى طرفة العين، يوجد وراءها غاية يُراد تحقيقها في هذا العمل ومنه. فمثلاً، عندما نأكل نريد أن نحقق الشبع، ولكن ما كنّا سنطلب الشبع لولا أنه كمال يُراد تحقيقه، فقد نرى من الناس، كالزهاد والعباد، يذمّون الشبع، ويرون أن الكمال في الجوع، ولذلك لا تراهم مدفوعين إلى الشبع. لأن في "تصور الكمال" فيهم الشبع ليس كمال، وقد مثل ذلك في كل شيء آخر.

فإذا جلسنا مع هذا الزاهد العابد، وأقنعناه أن الشبع كمال، واقتنع هو بذلك، فجعل الشبع في "تصور الكمال" الذي فيه، فإنه بعد ذلك إذا شعر بالجوع لن يأكل مقدار سد حاجة الحياة، ولكنه سيأكل حتى الشبع لو استطاع، وهذا معنى أن التغيير الأصلي محله "تصور الكمال" وما الدعاة إلا وسائل لإدخال أفكار معينة إلى حقل "تصور الكمال" في الناس، ثم بعد ذلك تتسلسل الأمور وحدها.

{ تصور } يكون إما بالتخيل أو الفهم المجرد أو الفهم شبه المجرد. التخيل كأن يرى الرجل نفسه مفتول العضلات في مخيلته، ثم يرى أنه سمين في الواقع، فيطلب أن يصبح ما تخيله هو الواقع، فيعمل لذلك. والفهم المجرد كأن يفهم أن طلب العلم كمال، والفهم شبه المجرد هو أن يمتزج التخيل مع الفهم المجرد، كأن يفهم أن الجاه والمكانة الاجتماعية العالية كمال، وهذا أمر مجرد، ولكن يقترن بشيء من التخيل كأن يرى في مخيلته احترام الناس له، وأنه يسكن في منزل فخم وأنه يملك سيارات كثيرة وخدم وما أشبه.

والخيال نفسه إنما هو من المشاهدة والسماع المبني على شيء من المشاهدة. فالخيال صور، والصور لا يمكن أن توجد إلا إذا رأى الرجل شيئاً ما، ثم يركب ويفرق كما يشاء، ولا يستطيع الإنسان أن يتخيل ما لم يره مطلقاً، حتى الذين يتخيلون الشيطان، فإنهم يفهمون فهماً مجرد أن الشيطان أمر قبيح، فيأتون بأقبح ما يمكن أن يتصوروه من الأشياء، ويمزجونهما معاً لينتجوا الشيطان، والسماع، كأن يسمع أن فلان كان يملك سبعين قصراً، وألف خادم، وكان يأكل من كل أنواع المأكولات، وعنده جواهر من الصين والهند، فلولا أن السامع قد رأى قصراً، لما استطاع فهم الكلام، وقد يقول له المتكلم أن القصر مثل البيت أو الكوخ ولكن أكبر منه بمئة ألف مرة، ويكون السامع لم يرى إلا الأكواخ، فيكبر الكوخ في مخيلته فيحصل له شيء من التصور، وكذلك لو لم يرى جواهر في حياته، ولكنه يُقرب له الفهم بأن يقال أن الجوهر حجرة ملونة نادرة في العالم وما أشبه. فكل الخيال مردود إلى ما شاهده الناس مباشرة بأعينهم، ولذلك الذي يولد أعمى لا يستطيع أن يتخيل شيئاً.

{ الكمال } مبني على فكرة "الأحسن"، والأحسن قد يطلبه للراحة، أو الكبر، أو كلاهما. فمثلاً لو أراد أحد السفر من قارة إلى قارة، فإنه يفضّل الطائرة على ركوب السيارة، لأنها "أحسن: أي أسرع أي أكثر راحة. وما طلب الأمور بسرعة إلا للرغبة في الراحة. وقد تكون فكرة "الأحسن" مبنية على الكبر النفسي، وهو أن يرى الإنسان نفسه كبيراً عظيماً يستحق أكبر الأشياء. فمثلاً لو سألت امرأة "أتفضلين لبس الجواهر أو عدم لبسها" فستقول لو كان فيها هذا الكبر "بل

الجواهر لأنها أحسن" وقد تقول لو كانت متواضعة، ترى أن الإنفاق على الحجارة الملونة بدل إطعام المحتاجين سفاهة، فستقول "بل عدم لبسها". وفكرة "الكبر" قد يكون مردّها إلى طلب المكانة الاجتماعية العالية. وهذه بدورها ترد إلى النقص النفسي، أو الشعور بالعدم، أو الرغبة في تحقيق غاية أخرى، أو الرغبة في تأمين المعيشة. وغير ذلك. وقد تكون مردودة إلى أمر إلهي، لأن الإله هو الكبير اللامتناهي، والفرع تابع للأصل، وبما أننا خلقه فإننا فرعه، ولذلك ترى أن كل الناس تريد أن تكون ملوكاً، سواء في الدنيا كأكثر الناس، أو في الآخرة كالذين لا يقدرون أن يحصلوا ملك الدنيا، أو كلا الأمرين، الراحة والكبر.

فإذن "تصور الكمال" هو مشاهدة أو سماع مبني على مشاهدة، يؤدي إلى طلب الأحسن لغاية الراحة أو الكبر أو كلاهما، فهذا أصل "تصور الكمال" وهذه هي غايته، أصله المشاهدة وغايته طلب والحصول على الأحسن.

*للأهمية أكرر، "تصور الكمال" أصله المشاهدة وغايته الحصول على الأحسن.

هل يوجد أحد ليس عنده تصور للكمال؟ أو هل أصلاً في الإمكان أن لا يكون عند الإنسان تصور للكمال؟ الجواب، لا، لأنه حتى الذي لا يريد "الأحسن" فهو يرى أن "عدم الحصول على الأحسن" هو الأحسن، أي عدم تحصيل الكمال هو الكمال عنده، فلا يمكن أن لا يكون عند الإنسان تصور للكمال، أيا كان.

ولذلك في كل الناس دائماً ترى أن كل شيء مبني على أساس أن "كذا هو الأحسن" أيا كان الناس وأيا كان الأمر.

وتحقيق الكمال في الواقع هو سبب السعادة والفرحة الوحيد الذي لا ثاني له، وعدم تحقيق التصور في الواقع هو سبب الشقاء الأكبر للإنسان. ولذلك، بما أنا كلنا نريد السعادة أيا كان تعريفها عندنا، فإذن يجب أن نختار "تصور للكمال" يكون تحقيقه يقين تام.

وبعد التحليل يظهر أن أحسن تصور هو ما كان مقسّم إلى أصل وفروع كالشجرة، وأن تجعل أصل سعادتك أمر لا تحتاج لتحقيقه إلى مال ولا ناس ولا حواس. ثم تجعل باقي الأشياء فروع، فإذا انقطع فرع أو حتى إذا انقطعت كل الفروع فإن الأصل قائم، وقد رأيت أن من جعل أصل فرحته وحود ناس سيصاب بتعاسته، لأنه ليس يستطيع أن يتحكم في الناس ويجعلهم حوله، ولو استطاع أن يجبرهم فلن يفرح لعلمه في قرارة نفسه أنه مبغوض منهم في عمق نفوسهم، أو وجود مال، فقد يكون فقيراً، وقد يخسر أمواله، وقد يحتاج إلى أموال أكثر مما عنده، والترف يحتاج إلى مال لا ينتهي، أو استعمال الحواس، فقد يسجن، أو يكون في بلد لا مناظر طبيعية فيها، أو يفقد أحد حواسه أو غير ذلك.

ولا يوجد كل هذا إلا في التأله، أي التأمل الباطني في نفس الوجود اللانهائي، وقد كشفت هذا لمن يريد الطريقة الأقرب إلى بلوغ حياة لا شقاء بعدها، بل فرحة لا تنقطع، ومن أراد أن يجرب بنفسه فليجرب.

وظاهر أن "تصور الكمال" هو مجموعة أفكار، فما مصدر هذه الأفكار: حتى يبلغ المرء عمراً يستطيع فيه التفكير باستقلال فهو مجرد وعاء يضع فيه مجتمعه ما يشاء من أفكار: أهله ومدرسته وبلده وما حوله أينما كان: ثم يتكون قلبه الأول، الذي لم يختار محتوياته. وبعد أن يبلغ ويكبر، يبدأ في التفكير المستقل، فتراه قد يتمرد على أهله وعادات مجتمعه، وقد يبقى على ما نشأ عليه ووضع فيه. الذين يغيرون ما وُضع فيهم هؤلاء هم الذين يصبح لديهم القلب الثاني، وإلا فهم على القلب الأول.

فإذن أول مصدر لتصور الكمال عند اشخص هو "تجارب المجتمع"، ثم "تجارب شخصية": وهذه التجارب الشخصية تمر بتجارب المجتمع ويجب أن تتكيف معها، وإلا فإن الشخص سيضطر إلى العزلة أو الدعوة إلى ما يراه، أو الهجرة. فإن اختار البقاء في مجتمعه ولكن بتصور للكمال غير تصورهم، فإنه سيصاب بأمراض الاكتئاب والغم بدرجة أو بأخرى، أو بالنفاق فيظهر ما ليس في نفسه مما يؤدي إلى ازدواجية الشخصية التي تؤدي إلى آلام في القلب قد تتطور فتبلغ مبلغاً سيئاً. وإن اختار أن يدعو إلى ما يراه ويعمل بغير ما يؤمن به مجتمعه فإنه سيصبح إما مبغوضاً لا أصدقاء له إلا القليل الذين لعلهم مثله، وإما سيطرد من المجتمع، أو سيسجن أو يقتل. وإن اختار الهجرة والسفر إلى بلدة أخرى فإنه سيمر بنفس ما كان يمر فيه في مجتمعه الأصلي، إذ الفكرة واحدة وهي أن المجتمع لا يتقبل من يريد أن يخالفه في ما اعتاد عليه، وإما أنه سينتصر بأن يجد آذاناً صاغية إلى ما يقول وما أعظم وأندر من يقبله مجتمع غير مجتمعه.

وأعلى مصدر لتصور الكمال هو الوحي: وإني إذ أذكره هذا أذكره كواقعه يؤمن بها فريق كبير من الناس. وليس هذا محل النظر في ذلك وتحليله، وقد نقوم بذلك نحيا بعد إن شاء الله، و "الوحي" مصدر أعلى من "التجارب الشخصية" و "تجارب المجتمع" لأنه يجب لكي يُفهم أن يمر بتجارب الموحى إليه الشخصية ومدى عقله، فتصور لو جاء وحي بالفرنسية لرجل لا يفهم إلا اللغة العربية: وأيضاً لأن الوحي قد يقدم تصوراً للموحى إليه لم يكن له علم سابق به عن طريق التجربة: فقد يخبره مثلاً أن أحسن أوقات التأمل هو الليل، وكان الموحى إليه يرى أن النهار أحسن أوقات التأمل، مثلاً لأن نور النهار يرمز إلى نور العقل، وبذلك يكون استعمال العقل في النهار أكمل منه في الليل، ولكن في الحقيقة هذا التأويل ليس بتمام الصحة، لأن الليل يرمز إلى الحقيقة الواحدة الدائمة، لأن كل الأشياء في الظلمة تظهر أنها شيء واحد، فهل تستطيع أن تفرق بين الكرسي والإنسان في غرفة تامة الظلمة: وهذا يرمز إلى الوجود اللانهائي الواحد الذي هو هو ولا غيره. وعلى ذلك يكون الليل أتم في المعرفة من النهار من حيث الجوهر، فهذا مجرد مثال بسيط على الفرق بين معلومة يقدمها الوحي ومعلومة يستنبطها الإنسان بنفسه. وبما أن الوحي قد يأتي بما لا يعرفه الإنسان الموحى إليه ولا المجتمع الذي نشأ فيه، فإذن "الوحي" مصدر أعلى من "التجارب الشخصية" و "تجارب المجتمع" وغيرهم كذلك.

ثم بعد أن يكون ذلك في وقت ما تصور معين للكمال في قلبك، في باطنك، وثم تنظر إلى الواقع فترى أن الواقع الظاهر غير ما تتصوره أنت أنه الأحسن، فعند ذلك يتولد فيك بعد مقارنة التصور الباطني مع الواقع الخارجي، يتولد فيك "شعور بالنقص". وإن كان الواقع مطابق للتصور يتولد فيك "شعور الرضا والفرحة". أما "شعور الرضا والفرحة" فهو الغاية الكبرى من كل شيء، وهي الحالة التي نريد أن نصل إليها من كل شيء نعمله حتى طرفة العين. وأما "الشعور بالنقص" فإنه ألم نريد التخلص منه.

وبعد ذلك ولعلاج هذا الألم الناتج من "الشعور بالنقص" تتولد فيك "الرغبة في الاكتمال": ووجود هذه الرغبة يُظهر أن في أساس الإنسان أنه يعمل على إخضاع الواقع الظاهري للتصور الباطني، وأيضاً لأننا نريد الظهور في المجتمع، ولأننا نريد أن نستشعر وجودنا عندما يظهر لنا تقدير الناس لنا لكمال ما فينا، كالذي يرى الناس يمدحون عقله أو جمال هيئته وجسمه أو كثر ماله، وأيضاً لكي نشعر بأهميتنا التي هي وجه آخر لرغبتنا العميقة في أن نشعر بأننا موجودين.

ومن هذه "الرغبة في الاكتمال" تتولد "الأفكار" التي تساعدنا على تحقيق هذه الرغبة. فالسمين الذي يرى أنه من الكمال أن يكون جميل الجسم، عندما يرى نفسه في المرآة سيشعر بالنقص، والألم، وسيرغب في أن يصبح جميلاً نحيلاً مفتول العضلات، ثم تبدأ تتولد الأفكار، فيحدد أي نادٍ سيذهب إليه، وماذا سيرهب، ومن أين سيحصل على المال، وكيف سيتدبر أمر الرياضة في جدوله العملي المزدحم وهكذا. وهذه الأفكار إما أن تكون تحليل من عنده لتجارب شخصية أو لتجارب الآخرين، أو يكون مجرد تصديق لما أخبر به أحد من الناس، كأن يقول له مدرب رياضي "افعل كذا، ولا تفعل كذا" فيصدق كلامه ويأخذ بنصيحته ويسلم بهما بالرغم من عدم علمه بأي شيء، ثقة في علم المدرب وتجربته.

ثم بعد العزم على تحقيق الأفكار تتولد القوة على "العمل"، وهذه القوة تكون بقدر قوة الرغبة في الاكتمال، التي تكون بقدر قوة الشعور بالنقص والألم الناتج عنها. ولعل ذلك يعود إلى عظمة تصور الكمال عند الشخص: فالذي يرغب أن يكون بطل العالم في كمال الأجسام ستتولد فيه قوة أعظم بكثير من لو كان نفس هذا الشخص يريد أن يكون فقط أنيق الجسم، وهو هو الشخص نفسه، ولكن بحسب تصوره للكمال تكون القوة التي ستتولد فيه للعمل.

ومن العمل، الذي هو أقوال وأفعال، ينتج الأثر، ثم هذا الأثر قد يكون شعور ما، كالذي يريد أن يعمل شيئاً ليشعر بالرضا، أو جسم ما أو حالة اجتماعية معينة ما كالذي يعمل ليكون طبيباً أو قاضياً. ثم يقارن الشخص بين الأثر، أي الحل التي هو عليها مع تصوره الأولي للكمال، فإن تحقق صار إلى الشعور بالسعادة، وإلا عاد إلى العمل مرة أخرى بنفس الدائرة، وإما أنه سيقارن حاله مع ما أخبره به المجتمع ووضعه فيه، فإما أن يمدح المجتمع أو يذمه، وإما أن يقارن مع تجاربه الشخصية فيحصل على تجربة جديدة في رصيد تجاربه، معلومة وشعور، وإما

سيقارن مع ما أخبره به الوحي، أي الدين الذي يؤمن به، فإما أن يزداد إيماناً أو بعداً عن الدين عندما يجلب له الدين الألم بدل السعادة التي وعده بها.

وهذه هي النفس وتفصيلات عملها وحركتها وكيفية تحرك الأوامر فيها :-
(ملحوظة أثناء النسخ: هنا يوجد رسم بيدي لمستطيلات مرتبطة بخطوط وداخل كل مستطيل عبارة وكذلك على الخطوط عبارات وتوجد نجمة كبيرة حولها مثل السحابة داخلها كلمة "الرضا". وهي رسمة تشكّل ما ذكرته بالجمل قبل قليل. وأحاول هنا وصف الرسمة حيث أني لا أعرف كيف أرسمها بالكمبيوتر.

الرسمة:
مستطيل "الوحي"، يصدر منه سهم إلى مستطيل تحته "تجارب شخصية"، يصدر منه سهم إلى مستحيل تحته "تجارب المجتمع"، يصدر منه سهم إلى مستطيل كبير له خطّين وفوقه قبّة كقبّة المسجد داخله عبارة "تصور الكمال". من على يسار هذا المستطيل سهم معقوف إلى مستطيع صغير حوله سحابة اسمه "الحال"، يصدر منه سهم إلى مستطيل تحته "شعور بالنقص"، يصدر منه سهم إلى مستطيل تحته "رغبة في الكمال"، وهذه المستطيلات الثلاثة على جهة اليسار، ثم يصدر سهم من آخر مستطيل إلى الوسط مرّة أخرى موازٍ لتصور الكمال وهو مستطيل "فكرة"، ثم يصدر منه سهم إلى مستطيل يوازي الثالث من الأسفل في اليسار لكنه هنا جهة اليمين وهو "عمل"، يصدر منه سهم إلى الأعلى منه "أثر"، يصدر منه أربعة أسهم معقوفة على كل واحد منها كلمة، فالسهم الواصل بتصور الكمال مكتوب عليه "مقارنة"، والسهم الواصل بتجارب المجتمع "نقد أو مدح"، والسهم الواصل بالتجارب الشخصية مكتوب عليه "تجربة جديدة"، والسهم الواصل بالوحي مكتوب عليه "حب أو بعد". وأخيراً من مستطيل الحال يوجد سهم له ثلاثة رؤوس يوصل بنجمة كبيرة جانبية خارج الرسمة ككل التي تشكّل نظاماً أو هيكلاً للنفس وهي نجمة حولها سحابة كبيرة وداخل النجمة "الرضا".}

(العلاج النفسي)
بما أنه لا يوجد حالة نفسية يمكن أن تكون مرضاً مطلقاً أو صحيحة مطلقاً، فإذن العلاج النفسي هو أن يحصل الشخص على الحالة التي يريدها هو. فمثلاً في حال أن الشخص يريد أو يُراد له أن يكون اجتماعياً محباً للناس وخدمتهم فيجب في هذه الحالة أن يكون الاكتئاب والتوحد أمراض يجب تغييرها، ولكن لو أرادت الحكومة إنشاء فرقة عسكرية انتحارية فالاكتئاب وكره الحياة وحب الموت يجب أن يكون غاية يُراد تحصيلها، وفي هذه الحالة يصبح حب الحياة مرض نفسي يجب علاجه.

فالعلاج هو الوصول إلى الغاية، سواء أكانت الغاية هي العقلانية أو الجنون. وعلى ذلك يجب أن نفهم كيفية تكون النفسية وتشكلها في وقت من الأوقات، ونفهم العوامل التي تساهم في خلق نفسيات الناس، وبذلك نوظف هذه العوامل للوصول لأية غاية يطلبها المريض النفسي أو تُطلَب منه.

علمنا أن المحور الذي تدور عليه كل شؤون النفس هو "تصور الكمال"، وأنه هو المحل الوحيد الذي يجب التأثير فيه في المقام الأول حتى يكون الأثر دائم. وعلمنا أن كل حركة وسكنة تصدر من الإنسان إنما يقوم بها لأجل الحصول على الراحة والكبر. وعلمنا أن التصور إنما هو من المشاهدة المباشرة ومن السماع الذي يولد الخيال فيكون كالمشاهدة ولكن غير مباشرة. وعلمنا أن حب الكمال إنما هو اتباعاً لمبدأ "الأحسن". وعلمنا أن "المقارنة" و "التجربة" و "الفهم" هي الأمور التي تجعل الإنسان يغير تصوره للكمال، أي يغير نفسيته. وبناء على كل ما فات نستطيع إجمال أدوات العلاج النفسي.

المشاهدة والسماع: والاقتناع بأن هذا الأمر أحسن، يجلب الراحة والكبر، واستعمال القصص والقراءة والقيام بتجارب حية وجعل المريض يخوض تجارب مصممة لكي يصل إلى الفكرة المُراد إقناعه بها، وجعل المريض يفكّر ويجادل ويقارن بين حالته الراهنة والحالة التي يُراد الوصول إليها.

ثم لا ننسى أنه لا يمكن لأحد أن يغير نفسية أحد اللهم إلا التأثير ووجود إرادة التغيير عند المريض، فقد يكون عنيداً فلا يؤثر فيه شيء كالحجر مهما نزل عليه المطر لا ينبت شيئاً. فيجب أن لا يجبر أحد على الخوض في العلاج النفسي، وإن اضطروا أن يجبروه، فيجب على المعالج أن يقنعه ويريحه بأن وجوده هنا هو الأحسن، ويفهم سبب عدم رغبته في أخذ العلاج طوعاً من نفسه ويجادله حتى يقلب أسباب عدم رغبته إلى أسباب تجعله يرغب في الخوض في العلاج.

وبما أن العلاج في أصله هو تغيير أسباب الحالة الراهنة، ووضع أسباب معينة توصل إلى الغاية المطلوبة، إذ لكل حالة علة، ويجب على المعالج أن يفهم أسباب وجود هذه الحالة ثم يغير في الأسباب وليس له غير ذلك: فمثلاً لو أن رجلاً مصاب بداء الانعزال عن الناس وشدة الخجل، فيجب فهم أسباب هذا، فإذا تبين أنه سمين قبيح المنظر وغبي لا يحسن الكلام، فعلى المعالج أن يصمم له برنامج لتحسين هيئته.ويعطيه كتب القراءة، ويجالسه جلسات فكرية حتى يتعود الكلام وآدابه وعمق النظر، وهكذا.

ولكن كيف سيعرف المعالج ما هي الأسباب الحقيقية الجذرية لهذه الحالة ؟ إذ لعل المريض نفسه لا يعرفها، أو نسيها، أو تناساها. فلعل حادثة وقفت له في الطفولة، أو واقعة سيئة لا يريد تذكرها ولا حتى ذكرها لأحد. وبما أن فهم الأسباب هو نصف العلاج، فلن يستطيع المعالج أن يبني له الدواء إلا إذا أفصح عن مكنونه، فما السبيل إلى ذلك؟

أولاً: على المعالج أن يكسب ثقة المريض ويجعله مرتاحاً في عيادته. وذلك بأن يكون المعالج جميل الهيئة، وتكون عيادته مفروشة بطريقة مريحة رائعة، وتكون رائحتها زكية عطرة. وأن يكون المعالج حسن الكلام، يشعره بأنه مثله بدون أن يبين له أنه مريض سيء، بل يحكي له عن تجاربه الخاصة. وآراءه الشخصية، وذلك لن يتم إلا إن كان المعالج نفسه يحيا حياة التأمل النفسي، وكان هو نفسه يخضع نفسه دائماً للعلاج والتحليل. لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

ثانياً: أن يطلب من المريض أن يقص عليه تجارب حياته الأهم فالأهم. وذلك لا يكون هكذا مطلقاً، بل يبدأ من نقاط معينة بحسب حالة المريض. فلو كان منعزلاً سميناً، يبدأ معه مثلاً فلماذا لا تبالي بكونك سميناً وما أشبه. لأن المريض لو ترك يتكلم كيف يشاء فإنه لعله يخفي الأمور المهمة ويبتعد عنها.

ثالثاً: أن يطلب من المريض أن يقص عليه أحلامه. لأن الأحلام هي التعبير الأكمل عن باطن الإنسان البعيد منه والقريب، وقد يظهر الحلم ما لا يعلمه الحالم نفسه، وفهم تفسير الأحلام الحقيقي هو من أهم ما يجب أن يتعلمه المعالج النفسي. ولعل لهذا الأمر من الأهمية ما يجعلنا نفرد له دراسة خاصة إن شاء الله، ونكتفي هنا بالإشارة المجملة، إذ ما هذه الدراسة إلا كالبذرة بالنسبة للشجرة المباركة.

رابعاً: أن يسأل أهل المريض وأصدقاءه ومن يعرفونه لو استطاع الوصول إليهم ولكن بطريقة لا تبين أن فلان المريض يتعالج عندي. ولعل الأحسن من يسألهم هم من يستأذن المعالج من المريض في سؤالهم، حتى لا يقع في الحرج منه وإفشاء سرّه فيخسر ثقته. ولا يستعين المعالج بهذه النقطة إلا في الحالات الشديدة التي يحتاج المريض فيها إلى رعاية أهله لعلاج نفسه.

ثم التعوّد: فإن الكثير من أسباب الأمراض يكون ناتج عن تعود المريض على فعل أو عدم فعل أمور معينة، فيجب فهم آلية رسوخ العادة، وفهم كيفية نزعها وإبدالها بأخرى تحل محلها لتصل به إلى الغاية المرجوة. ومتابعة المريض في ذلك مهمة جداً للعلاج، ولذلك فالعلاج النفسي ليس كزيارة طبيب جسمي مرة أو مرتين وانتهى الأمر، بل يجب أن يرى المعالج كل فترة من الزمن بحسب حالته وعلاجه. فالعادة والمتابعة ضرورية في المعالجة.

ثم المحيط: فإن الإنسان يتأثر بمن وما حوله شاء أم أبى إلا ما شذ وندر. وحتى هؤلاء يتأثروا لا محالة. فإن كثرة سماع نوع معين من الكلام، ورؤية نوع معين من التعامل، والتواجد في بيئة معينة كل هذا يؤثر في النفسية أعظم تأثير، فيجب مراعاة محيط المريض، فإن كان سبباً لابد من تغييره فعلى المعالج أن يدبر كيفية ذلك للمريض، وإن كان لا يستطيع تغييره، كأن يكون الابن مصاباً بمرض ما من كثرة ما يرى أبوه وأمه يتقاتلان، وظاهر أنه لن يستطيع ترك البيت. فعليه أن يخبر الأهل بذلك وأنهم سبب في خلق هذا المرض فيه فلعلهم يصلحون. وقد يحتاج المريض إلى السفر وما أشبه. وقد يحتاج إلى تغيير أصدقاءه، أو جامعته، وإن لم يستطع تغيير محيطه فعلى المعالج أن يعلمه كيفية التأثير في محيطه بحيث يكون هو أعلى منهم، بحيث يؤثر فيهم ولا يتأثر، يعمل على تغييرهم ولا يتغير. وهذه درجة عالية في العقل. فيجب فهم المحيط وكيفية الانتفاع به لصالح المريض.

ثم الدين: فإن لكل إنسان دين ما، أو مذهب ما، أو منهج ما قد تربّى على الإيمان به، أو اقتنع هو به، فعلى المعالج استغلال هذه النقطة المهمة في علاجه، لأنه من أكبر العوامل التي يتأثر بها الإنسان، حتى الملحد يجب أن يستغل دينه، الإلحاد، في علاجه. وعلى هذا يجب على المعالج فهم

دين مريضه وهل هو حقاً مقتنع به ويريده لنفسه، فإن كان نعم فيستعمل الدين لعلاجه، وإن كان لا فيتباحث معه في آرائه حتى يصل به إلى دين ما، أو يخترع هو لنفسه ديناً ما، المهم أن يفهم ما غاية حياته وكيفية أن يحياها وأن يكون له مرجع أعلى، فإن الحيرة في هذا الشأن هي أكبر أسباب تعاسة الإنسان أياً كان. فيجب فهم الدين والانتفاع به لصالح المريض.

فإذاً نخلص إلى عشرة مبادئ العلاج النفسي نجملها هنا: كسب الثقة، المشاهدة والسماع، الاقتناع بالأحسن للراحة والكبر، التجربة والمقارنة والمجادلة، خلق الإرادة، تحليل الأحلام، تحليل التجارب، العادة والمتابعة، الانتفاع بالمحيط، الانتفاع بالدين.

(مبادئ علم النفس)

أريد أن أختم هذه الدراسة بسبعة مبادئ تجمل الكثير من علم النفس، وتكون بمثابة مذكرة لكل من يريد تعاطي هذا العلم الشريف، وبمثابة بداية لكل من يريد تعلمه.

١-لكل حالة علة، ولكل غاية وسيلة.
٢-العلة في الطفولة والتجربة والرؤيا.
٣-العلاج أن تساعده أن يعالج نفسه.
٤-النفسية هي أثر للحركات الجسمية والفكرية والاجتماعية.
٥-الرمز والمرموز له واحد، فلكي تفهم حلمه يجب أن تفهم ماذا يعني الرمز له.
٦-عالج القلب بالقلب والجسم بالجسم.
٧-التأله والرياضة وحسن التغذية أصل العلاج وثمرته أن تتحقق له غايته.

(الخاتمة)

إذا لم تفهم نفسك فماذا تفهم ؟ والحمد لله رب العالمين.

....

رسمة :
١ (تصور الكمال) - ٢ (مقارنة مع الحال)- ٣ (شعور بالقصور)- ٤ (رغبة في الكمال)- ٥ (أفكار لتحقيق الرغبة)- ٦ (أعمال لتحقيق الرغبة).
من تصور الكمال خط عليه "إذا تساوت" شعوري/لاشعوري يوصل إلى سحابة ٨(الرضا).
من تصور الكمال خط عليه "مقارنة" مع ٧(احال).
من مستطيل رقم ٦ خط عليه "سرية/علنية". وتحت المستطيل "جسمانية/تبريرات/أحلام/دعاء القوي".

..-...

(١) ١/**تصور الكمال.** تصوراتنا عن الكمال يمكن أن تكون شعورية نابعة من اختيارنا لقيمة معينة أنها من الكمال. أو لاشعورية بتأثير التربية والمجتمع والتعود على كون فكرة أو قيمة معينة تعبّر من الكمال.

وبما أن أهم ما في النفس هو تصور الكمال، لأنه منبع كل مشاعرنا وأفكارنا وأعمالنا، فيجب على العاقل أن يحلل تصوره للكمال ويطهره ويختار كل قيمة بعناية قبل أن يقرر أنها من الكمال. لأن كل حياته تعتمد على هذا العمل الفكري العظيم. ولا تنسى أن الذي لا يختار بنفسه فإنه يجعل هذا الاختيار في يد غيره. فتصور الكمال كالصندوق، إذا لم تملأه أنت فإن غيرك سيملأه لك. وإن لم تكن أنت تهتم بنفسك فهل تتوقع أن يهتم بك ولك غيرك.

اللاشعورية له باب هو الشعور. وبحكم صغر السن وضعف التجربة والعلم، فإن الناس عادة تسمح للأسرة والمجتمع أن يُدخلوا ما يشاؤون إلى قلبنا الباطني ونبع حياتنا. وأول ما يجب على البالغ فعله هو نقد لا شعوره، وتحليل القيم الساكنة فيه. وتستطيع أن تعرف هذه القيم اللاشعورية بالنظر إلى باقي الهيكل، أو هيكل النفس. فانظر إلى رغباتك وأعمالك ومشاعرك فإنها باب لاشعورك.فانظر إلى الأمور التي ترغب فيها، والتي تشعر أنك ناقص لو لم تكن متحققة عندك، وانظر إلى أعمالك، وحلل أحلامك وأدعيتك ومجادلاتك، ولاحظ كيف تنفعل الحوادث التي تمر أمامك، ولاحظ المشاعر التي تتولد فيك عندما تسمع خبراً ما أو يقع لك أمر ما. وهذه هي أهمية هيكل النفس، فإن كل عضو يدلك على العضو الذي قبله وينبئ عن الذي بعده.

ومن أحسن الأمور التي تظهر لك لاشعورك هو أن تحلل شخصية مثلك الأعلى الحقيقي. فمن أسرع ما يملأ اللاشعور هو اتخاذ مثل أعلى. فتصبح نفس هذا المثل الأعلى هي النفس الكاملة عندك، وبذلك تبعد تقارن نفسك به تلقائياً، ثم تكتمل دائرة هيكل النفس لاشعورياً.

فالاختيار الحقيقي الوحيد الذي يملكه الإنسان، والإرادة الحرة الوحيدة هي في اتخاذ مثل أعلى، أي النفس التي تملأ تصور الكمال. ولا توجد فرحة إلا بالسعي إلى تحقيق هذا التصور

في واقع النفس، فتتحد نفسك مع مثلك الأعلى. ولا يوجد عذاب إلا عندما يقارن الإنسان نفسه مع تصوره للكمال فيجد نفسه لم يبلغ ذلك بعد، سواء لم يبلغ التمام أو لم يبلغ بعض الصفات خاصة الكبرى منها. وأشقى الناس هو الذي يجعل لنفسه تصوراً للكمال لا يستطيع أن يبلغه لاستحالته أو لاعتقاده أنه لا يستطيع أن يبلغ إلى الاتحاد به، وهذا ليس فقط أشد الناس تعذباً ولكن أغباهم على الإطلاق لو كنت تعلم أنه ليس في الإمكان الاتحاد مع تصور للكمال فلماذا اخترته أصلاً؟

تصور الكمال يتكون من قيم إيجابية فقط، إما قيم يجب الوصول إليها وهي الكبرى، وإما قيم من الحسن الوصول إليها وهي الصغرى. فمثلاً، لا يوجد فيه قيمة تقول "يجب أن لا أكون جاهلاً" ولكن "يجب أن أكون عالماً". وحتى لو قال شخص لنفسه "يجب أن لا أكون جاهلاً" فإن عقله يستقبل "يجب أن أكون عالماً" ولا يفهم العقل إلا لغة الإيجابيات. وهذه كلها أمور نسبية، بحسب ما يختار الشخص. فلا يوجد قيمة كبرى مطلقاً أو صغرى مطلقاً. فقد يختار شخص قيمة ويجعلها كبرى. وآخر لا يجعلها قي تصور للكمال أصلاً. القيم الكبرى تسبب الألم المستمر لفاقدها والفرحة المستمرة لمن يحققها. والقيم الصغرى قد لا تسبب ألماً يشعر به الشخص أو يشعر به قليلاً ثم ينساه.

فمثلاً، قد يختار الإنسان كقيمة كبرى "يجب أن يكون جسمي نحيفاً جميلاً". وكقيمة صغرى "من الحسن لو كانت ملابسي من محل فاخر". ولو كان في الواقع بديناً بشعاً فإنه سيشعر بالألم في كل يوم، وفي كل مرة ينظر فيها إلى المرآة. وفي كل مرة يذهب إلى السوق ليشتري الملابس، وفي كل مرة يخرج مع أصدقائه ويقابل امرأة. وأما الصغرى فقد لا يبالي بها كثيراً خاصة لو تحققت له الكبرى. فيسلّي نفسه بأحد التبريرات. كأن يقول "يغنيني جمال جسمي أو شراء الملابس الفخمة من زخرف الحياة الدنيا" وما أشبه.

على أي أساس يجب أن يختار الإنسان تصوره للكمال؟ لا يوجد يجب ولا يجب في هذا الأمر. أنت حر تماماً في اختيارك هذا. وقيمتك بحسب قيمك. ولكن تذكر أن ألمك وفرحتك مرهون باختيارك هذا. أما أنا شخصياً أفضّل أن أجعل تصوري للكمال كالبناء، فأجعل القاعدة أمر لا أحتاج لتحقيقه إلى ناس ولا مال ولا حواس، لأن الناس قد يموتوا والمال قد ينفد والحواس قد تتعطل، وبذلك لا أحتاج إلا إلى نفسي لأكون في فرحة، وبعد طول تأمل لم أجد هذا الأمر إلا في أمر واحد، وهو التأله الباطني في الوجود اللانهائي. ثم أبني بحسب الضرورات الجسمية والعقلية والاجتماعية. وهذا أمر يطول تفصيله. ولكن هذه هي مهمة الأديان والمذاهب الفكرية عامة. هي تقدّم تصورات للكمال إلى الناس. وعادة الذين يتكاسلون عن القيام باختيارهم يلجئون إلى آخرين قاموا بالسفر النفسي واختاروا وصمموا بضاعتهم وعرضوها على الناس.

فإن شئت أن تشتري بضاعة غيرك وتجعلها في بيتك، وإن شئت أن تنتج بضاعتك بنفسك وتأكل من عرق جبينك، ولكن مهما تفعل فأكرر التذكير بأهمية وعظمة هذا الأمر. فانظر جيداً، وانقد جيداً، ولا تتعجل. فأن لا يكون عندك إلا قيمة واحدة تخلق فيك الفرحة خير من أن تمتلئ نفسك

بسبعين قيمة تفتح عليك أبواب جهنم من كل مكان. وحدد القيمة وعرفها جيداً ولا تكن ضبابية حتى لا تشوي عليك حياتك. فتصبح وأنت لا تعرف هل حققت تصورك أم لا، فتخلق في قلبك ألم الحيرة. فانقد القيم ثم قرر ثم حدد.

(٢) ٥/ أفكار لتحقيق الرغبة. أعقد العمليات الفكرية يمكن أن يتم، بل يتم لاشعورياً. ومن أكبر الدلائل على هذا ظاهرة الأحلام. وردات الفعل. والكلام المرتجل المنظم. والمشاعر التي تُثار بسبب شيء عابر أو لمحة بسر. فاللاشعور يحوي من الأفكار والذكريات والقوة ما يجعل العقل الواعي الشعور يظهر وكأنه قطرة بالنسبة إلى البحر. الفكرة الشعورية هي التي تسمع صوت نفسك وأنت تخلقها. أو تكون تفكر في حضور عقلك تماماً، فلا عندما تحل اختبار في الجامعة.

فيوجد نوعين أو درجتين من الأفكار، السرية والعلنية. الأفكار السرية إنما تخفيها بسبب خشية الرقابة، سواء أكانت الفكرة السرية مقبولة شخصياً أو مرفوضة. والأفكار العلنية إنما تعلنها بسبب حصول الموافقة ضد الرقابة، سواء أكانت الفكرة المعلنة مقبولة شخصياً أم مرفوضة.

الرقابة قد تكون اجتماعية "سأعاقب عليها"، أو تكون دينية "سأحاسب عليها". والرقابة الاجتماعية التي تكبت فكرة مقبولة عند الشخص نفسه تخلق الأحلام والأمراض النفسية وازدواج الشخصية والجرائم. والتي تكبت فكرة مرفوضة عند الشخص نفسه فإنها تكون دافع زائد تجعل الشخص يلغي فكرته في مزبلة النسيان، وتجعله يشعر بقربه من مجتمعه وتخلق نوع من الحب بين الفرد ومجتمعه. فهذه الرقابة الاجتماعية هي مجرد رقابة ظاهرية، وأقصى ما يمكن أن تفعله هو أنها تمنع الفرد من تحقيق فكرته إلا شعر أنه سيعاقب. ولكن إذا ظن أنه سيفلت من العقاب، أو لن يطوله العقاب فإنه لن يبالي بها وسيفعل ما يشاء.

أما الرقابة الدينية "سأحاسب عليها" فهي رقابة باطنية. والمفترض فيها أن الإله يعلم ما في نفس الإنسان، ولذلك يصبح الإنسان يخشى حتى أن يفكّر في الأمر الذي يعتبره دينه معصية وسبب لغضب الإله أو الآلهة، فيعمل هو بنفسه على كبت فكرته. وهذا أشد نوع من الكبت على الإطلاق، أن يُمنع الإنسان من مجرد التفكير بالأمر خشية العقاب من الإله، والحساب على كل صغيرة وكبيرة تخطر على النفس، حتى لو خطرت له لاشعورياً وبغير إرادته. ولذلك لن تجد من أصحاب العقد النفسية مثل ما ستجد عند أهل فكرة "سأحاسب عليها" وهذا من أهم أسباب تخلّف أكثرهم الفكري، لأن الترقي الفكري يقتضي نزع الرقابة وقتلها، حتى تطوف الأفكار بحرية، ثم ينقد ويختار. فإذا كانت مجرد الخاطرة قد تودي بالشخص في الجحيم فماذا بقي من الكبت والتخلف العقلي.

وإذا كانت عند شخص فكرة هو يراها حسنة مقبولة. ولكن الدين يقول أنها سيئة يعاقب عليها الإله، فإنه إما أن يكبت فكرته ويقلّ حبه للدين، وإما أن لا يبالي بالدين بتأويله أو رفضه. ولذلك فالدين الذي يعلم أتباعه الكبت هو دين فاشل يريد أصحابه أو زعمائه أن يتكسبوا منه لأنفسهم

ولا يبالون بما يقع للناس الذين يرونهم كالأتباع البهائم ليس أكثر. وأما لو كانت الفكرة مرفوضة عنده وفي الدين، فإن هذا يجعله يتعلق في الدين أكثر. ومن الأحسن أن يأتي الدين ويمسح تصور الإنسان للكمال، بمسحه كله، ثم يملأه بتصوره للكمال. وبذلك يأمن من تعارض أفكار التابع مع أفكار الدين. ولكن هل يستطيع الناس أن يحصروا مصدر علمهم في مكان واحد أو كتاب واحد؟ لعل هذا هو التوحيد الحقيقي.

هذا بخصوص الأفكار السرية التي تخفيها عن الناس وعن أنفسنا. أما الأفكار العلنية، فإنما نعلنها بسبب تيقننا أو ظننا القوي بموافقته الرقابة عليها. والموافقة هذه قد تكون اجتماعية "الناس تريد هذا"، أو دينية "الرب يريد هذا"، أو شخصية "أنا أريد هذا". فالموافقة حرب الإرادات. أي الإرادات أقوى. إرادة المجتمع، أو إرادة الدين، أو إرادتي أنا. والذي يخضع إرادته لإرادة غيره من الناس لاشك وإنه سيكون إما ضعيف أو معذب في نفسه إلا لو كان في تصوره للكمال أن يكون عبداً مذلولاً. هذا النزاع بين الإرادة الشخصية وإرادات الغير من أكبر أسباب الآلام النفسية التي تخلق في البعض عزيمة وجهاد. وفي البعض الآخر عزلة وتوحد، وفي الأكثرية تخلق لامبالاة إذ لا يشعرون بأنفسهم أصلاً ولا يهمهم غير الحياة.

وأحسن الحالات عندما تكون إرادة الناس هي إرادة الرب التي هي إرادتي أيضاً. وأسوأ الحالات عندما تكون إرادة الناس غير إرادة الرب التي هي غير إرادتي. الأولى تخلق مجتمعاً سيسود العالم. والثانية تخلق مجتمعاً من الوحوش المشوهة الممسوخة.

وعلى ذلك، المجتمع الأكمل هو الذي يستمد أهله تصورهم للكمال من نفس المصدر. أو يكون لهم نفس التصور في الغالب، خاصة في القيم الكبرى.

ونلاحظ أن وجود الرقابة هو سبب تقييد ظهور الأفكار في عقل الإنسان. فعدم وجود الرقابة يجعل الإنسان عبقرياً لو كان عالماً. ودرجة العبقرية تتناسب عكسياً مع درجة الرقابة. كلما زادت الرقابة اقترب الناس من البهائم. اقتل الرقيب تصبح على كل شيء شهيد. بما أن كمال الإنسان بحسب كمال عقله، وبما أن كل ما في عالم الخلق يدل أن الخالق يريد أن تبلغ الأشياء كمالها، فإذن لا يمكن للخالق الحقيقي أن يفرض رقابة على الإنسان. فإذن أي شخص يصور للناس إلهاً يحاسب على كل أفكار الإنسان حتى لو لم يعمل بها هو دجال وإلهه كذب. فهذا معيار عميق للحكم على الأديان.

أما المجتمعات التي تمنع التعبير عن الأفكار، وتتدخل في خصوصيات الإنسان، وتفرض رقابتها على أفكار الناس، فهي مجتمعات لا يمكن بحسب القانون النفسي الذي عرفناه إلا أن تكون مجتمعات متخلفة عقلياً ومعقدة نفسياً.

الرقابة الفكرية شر بلاء على الإنسانية. ولا يمكن أن نجد عبقري حر وقد رضي بوجود رقابة على أفكاره. لا يمكن أن يرضى بالرقابة إلا الجهلة أو البهائم حصراً. وهي فوق ذلك تخلق المنافقين

أصحاب الوجهين. كيف يذم الناس المنافق وقد خلقوه بأيديهم؟ كيف يذم الناس المرضى النفسيين وقد خلقوهم برقابتهم هذه؟ أول مهام كل سليم أن يقتل كل رقيب. مملكة الإنسان مسكنه، أما خارج مسكنه فيعمل للمعيشة ثم يرجع إلى بيته. فما فائدة الرقابة غير تشويه وتقزيم الإنسان؟ كفّوا عن الرقابة تزدهر المعرفة.

(٣) ٦/ أعمال لتحقيق الرغبة. يظهر التحليل والاستقراء أن النفس تحقق رغباتها أو تعمل على تحقيق رغباتها بوسائل أربعة، هي أياديها في العمل. العمل الجسماني، والتبرير، والدعاء، والأحلام.

١-العمل الجسماني. وهو أشهر أنواع السعي للتحقيق، وهو بديهي فلا نحتاج أن نفصّل فيه كثيراً. مثلاً رجل عنده قيمة أن يكون جسمه رشيقاً، فيذهب إلى الرياضة باستمرار. ولو كان كل الناس يسعون لتحقيق رغباتهم بالعمل الجسماني لما ظهرت الأنواع الأخرى من العمل. والتكاسل عن العمل أو عدم المقدرة هما منبع باقي الأعمال.

٢-التبرير. وهو العمل اللساني والكلامي. فمثلاً نفس هذا الرجل الذي يريد أن يكون رشيقاً، ولكنه يتكاسل عن الرياضة المتعبة أو لعدم قدرته المالية أو الإصابة الجسمانية التي تمنعه من ممارسة الرياضة، قد يقول لنفسه مبرراً عدم ممارسته للرياضة وبقاءه سميناً "من ليس له كرش لا يساوي قرش" أو ما أشبه ذلك من التبريرات التي تتفاوت في درجة ذكاءها بحسب ذكاء المبرر نفسه. فيعمل على إقناع نفسه أو غيره بعدم جدوى القيمة بالرغم من اعتقاده الفعلي بأنها من الكمال.

والظاهرة المشهورة المنتشرة في كل مكان وزمان، أي التثبيط وكسر همم أصحاب الطموح، إنما منبعها هو هذا. فيأتي رجل له طموح عالي في أمر ما، فيأتي أصحابه ويقولون له "لا، لا تفعل ذلك، مستحيل، لن تستطيع أن تحقق ذلك أبداً" ما هو السر النفسي وراء هذه الظاهرة المشهورة؟

هؤلاء المثبطين لا يريدون أن يقروا أن هذا العمل العالي يعتبر جيداً ومن الكمال، لأن إقرارهم سيدخل هذا العمل إلى تصورهم للكمال، والذي سينتج شعورهم بالنقص والألم إذا لم يتحقق ولم يسعوا إلى تحقيقه. فيختصرون الطريق على أنفسهم، وينكرون القيمة بحجة استحالتها وما أشبه ذلك. الإقرار بالقيمة يجعلها في خزانة قيمك، أي تصورك للكمال. ومن بعد ذلك كل شيء تلقائي لاشعوري.

٣-الدعاء، بما أن الإله على كل شيء قدير، وهو الوكيل وهو سميع الدعاء وله جنود السماوات والأرض، فإذا أردنا شيء فما علينا إلا أن ندعوه، ونجعل الأمر في يده، وما نحن إلا عبيد سننتظر جوابه هذا هو منطق الذين يريدون تحقيق رغباتهم بالدعاء. الذي يشبه التبرير من حيث أن كلاهما بالكلام، ويختلف في الوجهة، فالتبرير موجه للنفس أو الناس، والدعاء موجه لمن يعتقد الداعي فيه، سواء إله أو ملك أو ولي صالح.

وإذا لم يكن الشخص عاجز حقاً وصدقاً، وكان يدعو فهذا دليل على أنه لا يؤمن حقاً بالقيمة التي يزعم أنه يريد تحقيقها. فمثلاً نرى ونسمع بعض الناس تدعو في المعابد لتحقيق أمر يحتاج إلى قرار سياسي لتنفيذه، فلكي يختصروا الطريق الذي قد يودي بهم إلى السجن أو القتل، فهم يدعون الإله ليحقق لهم. ونفس هؤلاء لن تجدهم يدعون الله عندما يطلبون أمر يريدونه لأنفسهم، بل تراهم يعملون ويجادلون ويراوغون. فلو كانوا حقاً يؤمنون بقوة الدعاء الذاتية لما اختلف الأمر في نظرهم. ولكن الفرق هو هل القيم لوجه الله أم لوجهي أنا؟ لو كانت لوجه الله ودينه فترى الناس غالباً ما يقنعون بالدعاء وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولكن لو كان لشهوتي وشهرتي فيجب الأخذ بالأسباب أليس كذلك.

والدعاء وسيلة حسنة لراحة النفس من حيث إنه يشعر الشخص أنه عمل ما عليه، وكفى الله المؤمنين القتال. ولذلك قد تجد الشخص يدعو الله أن ينصر دينه. وهو لا يعمل أي شيء، ويشعر في نفسه أنه قد ساهم في الجهاد في سبيل الله، حتى لو كان جاهلاً غافلاً.

والدعاء وسيلة حسنة للكبر، لأنه يعني أمرين، أولاً أني من العظمة بحيث الله رب السماوات والأرض يسمع كلامي، ونحن نعلم أنه لا يدخل على الملوك الدنيويين إلا الكبار، فكوني أدخل على ملك الملوك يعني أني كبير جداً. وثانياً أني من العظمة بحيث أوجه طلب وأريد من الله أن ينقده لي، فالدعاء نوع من الأمر، حتى صيغة الدعاء هي بحسب اللسان صيغة أمر لا تفرق عنها من حيث الظاهر شيء. فتأمل مثل الفرق بين أن تقول لابنك "بني، اجلب لي كأس من الماء" وبين أن تدعو الله وتقول له "رب اشرح لي صدري" فالدعاء ليس من التذلل كما يظن العامة ولكن من صميم الكبر من أوله إلى آخره. ولعل الأديان تحب الدعاء لهذا السبب بالذات، لأنه يشعر بالعظمة لاشعورياً وبدون تكلفة مالية.

٤-الأحلام. الذي لا يستطيع أن يعمل يبرر، والذي لا يستطيع أن يبرر إما يدعو وإما يحلم أو كلاهما. الحلم هو الملجأ الأخير لأصحاب الرغبات. وهو من أعظم الظواهر العقلية في العالم كله.

عمل العقل وعمل الجسم متضادين، والعلاقة بينهما عكسية، فكلما اشتدت مركز الجسم ضعفت حركة العقل، وذلك لا يستطيع أحد أن يفكّر في مسألة فلسفية وهو يتعرض للضرب بالعصي. وكذلك كلما اشتد سكون الجسم اشتدت قوة العقل. وفي النوم يشتد سكون الجسم، وتشتد الغفلة عنه. فليست العبرة بسكون الجسم فقط ولكن بسكونه وعدم التفكير فيه أي عدم الالتفات إليه، وكلا الأمران متوفران في النوم. ولذلك يكون عمل العقل على أشده.

وبما أن أقوى رقابة هي الرقابة الاجتماعية، وهذه غير متوفرة في باطن الإنسان، فلذلك في الحلم حرية كبيرة نسبياً في تصوير الأفكار. والرقابة الإلهية لا يمكن تذكرها إلا شعورياً، والشعور لا يكون حاضراً عند النوم إذ النوم هو نوع الشعور أيضاً. فلذلك لا يبقى لخلق الحلم إلا اللاشعور. ومن هنا عمق الحلم ورمزيته وشدة تعقيده.

وقد تتجذر الرقابة في الشخص حتى تصبح لاشعورية، فيعمل على إخفاء رغباته في الصور والأمثال. وفي أكثر الأحيان يكون الشخص يخدع نفسه بنفسه، أي يخدع عقله الشعوري بعقله اللاشعوري، فهو لا يريد أن يقر أنه يرغب في شيء، حتى لو لم يعتقد بالرقابة الإلهية، فيعمل على إخفائها بصور شديدة التعقيد بحيث لا يستطيع أحد أن يفك رموزها إلا إذا عرف بعض الذكريات التي لا يعرفها إلا هو شخصياً. فكأنه جعل رغبته في خزانة لا يملك مفتاحها غيره. ولعل أصل هذا الخداع هو خشيته من أن يفتضح أمره، كأن يكون قد جرّب أمر في الواقع جعله يعتقد أنه قد ينكشف عاجلاً أم آجلاً، فيصبح شديد الخدر حتى وهو نائم.

حتى الأحلام التي نسمّيها كوابيس هي في الحقيقة تحقق رغبة بوجه أو بآخر. وكل أنواع التفكير والتخيل الذي ما هو إلا تفكير بصور، هي تحقيق لرغبات، والفرق بين التفكير في اليقظة وفي النوم هو أن التفكير في اليقظة غالباً ما ينتجه نحو البحث عن وسائل للوصول إلى الغاية، أما في النوم فيرى الغاية محققة. ولذلك نجد أن الحلم يجعل الشخص يشعر وكأنه في الحقيقة. فالحلم يجعل الخيال هو العالم الواقعي، ولذلك الذي لا يستطيع أن يحقق أمر في العالم الواقعي الواقعي يعمد إلى الحلم ويفعل ما يشاء فيه.

فالحلم نعمة ونقمة، نعمة لأصحاب العزيمة الذي يعملون لغاياتهم في الواقع، نقمة لمن يتكاسل ويقارن ما عاشه في الحلم بما يعيشه في الواقع، ومعلوم أن الذي لم يعرف إلا الفقر أحسن بكثير من الذي عاش غنياً ثم افتقر، لأنه ذاق الغنى. كذلك الذي لم يتذوق طعم رغبته وهي محققة أحسن حالاً من الذي عاش فرحة رغبته في الحلم ثم استيقظ ليجد محبوبته وهي زوجة عدوه في واقع الأمر.

والحلم كذلك مسرح للتجربة. أو قل معمل للتجربة. فقد يرغب شخص في أمر ولكنه يخشى أن يكون سيء في الواقع. فهو في حيرة، فيرى وكأن الأمر تحقق لكي يعيش الشعور فيعرف حسنه من قبحه. مثلاً شاب له شعر طويل وقد مكث ثلاث سنوات وهو يربي فيه، ثم فكر في أن يحلق رأسه. وهو لا يعلم هل سيكون شكله حسن أم لا، ولا يريد أن يحلقه لكي لا يندم إذ لن ينفع الندم، فيرى في الحلم وكأن رأسه محلوق في الواقع. وهذا مثال بسيط لتبيان الأمر. وكثيراً ما يعمل الحلم معمل للتجربة خاصة عند المترددين.

والرموز تختلف من شخص إلى شخص، فلكي تعرف معنى الرمز من الأحسن لو نظرت في معناه عند الحالم نفسه. والكلمة التي يستعملها الشخص في ذكر حلمه لها دور مهم في فهم الرموز. والتحليل يقتضي أن لا تفعل شيئاً، وتحاول أن تحد الفكرة الرئيسية التي تعمل كالخيط الذي يجمع كل أفكار الحلم الكامنة فيه. مع العلم أن كل مقطع من الحلم قد يعني أمر لا علاقة له في الظاهر مع المقطع الآخر.

تحليل الأحلام من أعمق وأمتع ما يمكن أن يفعله إنسان. وفي كل حلم من العلم ما لا يعلمه حتى العالم نفسه، لأنه عندما يستيقظ تعود الرقابة بكل قوتها، وتتحول شخصيته، ولذلك قد تفهم من

حلمه أمور لا يمكن أن يقر بصحتها أمامك، حتى لو عرفها هو من نفسه وأقر بها في نفسه. فمثلاً روت لي امرأة حلم وبعد التحليل أخبرتها أنها ترغب في أن تتزوج من رجل، وأن يكون هذا الزوج خائناً لو لم يعجبها، وأن يخونها مع امرأة ليست من قراباتها ولا صديقاتها، وحبذا لو كانت من البعيدين الذين تكرههم، وهذا لكي تستطيع أن تطلب منه الطلاق بدون أن يقع أي لوم عليها ولا تنقدح سمعتها أمام أهلها والناس. ولسبب لا أعرفه بعد أقرت بصحة هذا التحليل. ولكن مع العلم أني لا أعرفها معرفة شخصية، ولا أعرف شيء عن أهلها ولا حالاتها النفسية. واعترفت وقالت "أشعر وكأني عارية تماماً أمامك".

ثم من نتيجة التحليل قد تعرف نوع شخصيتها وأهلها والمجتمع الذي تحيا فيه. ففي حالة هذه المرأة، فقد كانت مستقلة مالياً إذ تعمل لنفسها ولها دخل جيد وهي في ارتقاء، ولذلك لم تبالي بالزواج أصلاً، إذ مهمة الزوج في هذا المجتمع هي جلب المال. ولكن أهلها يرغمونها على الزواج. وهي ذات ثقافة غربية، فلا تبالي بمعاشرة رجل تحبه حتى لو لم يكن زوجها، ولذلك رغبت في زوج خائن، وأيضاً لأن البكورية ضرورية في هذا المجتمع، ولذلك تحتاج زوج شرعي ليحررها من سجن البكورية حتى لا تنفضح. وإذا عرفتم صيغة الحلم ورموزه ستعرفون أنها شديدة في الدفاع عن نفسها، ولذلك كانت الرقابة عالية على صور الحلم. ومن هنا اندهشت بعد أن ذكرت لها التحليل، ولم تتوقع أن أخبرها بكل هذا من هذا الحلم الذي يظهر وكأنه لا معنى له.

بما أن أساس الإنسان هو اللاشعور، وأي تغيير يرجى يجب أن يصل إلى اللاشعور. وبما أن الإنسان قد لا يعرف ما في عقله الباطن، فلذلك تحليل الأحلام ضرورة في حياة كل إنسان وخاصة المحلل النفساني. باب الحرية هو السيطرة على الاعتقادات اللاشعورية.

هل يستطيع الحلم أن يتنبأ بالغيب؟ هذا سؤال أساسي منذ قديم الزمان. وإني أرى أن صياغة السؤال ليست دقيقة. ومعلوم أن نصف الجواب كامن في السؤال. فالسؤال هكذا يجب أن يكون. هل يستطيع اللاشعور أن يكشف المستقبل؟

لو وجدت رجل يأكل كل يوم من مطاعم الوجبات السريعة، ويعتقد أن هذا واجب عليه، هل تستطيع أن تتنبأ عن حالته بعد عشر سنوات؟ لاشك أننا نستطيع أن نفعل ذلك شعورياً. هذا لا يختلف عليه أحد. فلماذا لا يكون في قدرة اللاشعور الذي يفوق في قوته بآلاف المرات قوة العقل الشعوري، أن يعرف نتائج الأمور؟ عقلياً لا يوجد ما يمنع ذلك.

أما واقعياً، فإني شخصياً أرى أنه ممكن بل واقع، فمن واقع تجربتي كثيراً ما أرى أمور مستقبلية أو غيبية وتقع. ومن واقع روايات الناس تاريخياً والآن نرى الكثير من الأمور التي تدل على وقوع ذلك. وبما أن الحلم يرينا الرغبة محققة، ولذة تحقق الرغبة تدفعنا في الواقع لكي نحققها، فالحلم من هذا الوجه كأنه يكشف المستقبل، لأنه يسحبنا إليه حتى لاشعورياً.

ولكن جوهر المسألة يكمن في مسألة هل القدر مكتوب أم لا، لأن كشف الغيب يقتضي كون الأعمال مكتوبة، وبالتالي لا حرية لإرادة الإنسان. وكون القدر مكتوب يعني الإيمان بالإله أو الآلهة الذين يكتبون القدر ويسيرون الناس إليه. ولذلك تختلف وجهات النظر بحسب عقائد الشخص الدينية. والتحقيق في هذا المسائل ليس هنا محله. ولذلك فلندع هذه المسألة حتى نقطع في المسائل الأخرى الأصلية.

المهم أن العمل هو الذي يوصل به الله الإنسان إلى رغباته "ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون" فالقعود مع رؤية ألف شيء لن يحقق شيء.

(٤) ٢-٧/ مقارنة مع الحال. نلاحظ أن المقارنة هي سبب كل حركة. مقارنة تصوري للكمال مع حالي يجعلني أسعى، ومقارنة حالي مع تصوري للكمال يجعلني أرضى. أي إذا اختلفا في الأول أو تطابقا في الثاني. وبما أن الإنسان لن يشعر بالرضا التام إلا إذا تطابق تصور الكمال مع الواقع الشخصي، فيجب أن نحلل هذه المقارنة لأنها العقبة أمام السعادة.

الأمر بسيط، عندي قيمة تقول "يجب أن يكون عندي مليون ريال" هذا في تصوري للكمال، ثم آنظر في حسابي المالي فأرى بالمقارنة أني أحتاج إلى ٥٠٠ ألف ريال حتى أصل إلى مليون. فأعمل على تحقيق ذلك. ثم بعد فترة أنظر في حسابي فإذا هو مليون ريال، فأقارن هذا مع قيمتي الكمالية، فأجد تطابق، فأشعر بالفرحة والرضا. فإما أن أشعر دائماً بالرضا لتطابق واقعي مع تصوري، وإما أن أضيعف إلى قيَمي القديمة قيمة أخرى، كأن أرفع المبلغ المطلوب إلى مليوني ريال، وعند ذلك تعود الكرة. هذا المثال يصدق على كل القيم الواضحة.

ولكن ماذا عن القيم المبهمة؟ فأن أعرف قيمتي الكمالية بالأرقام أمر جميل وواضح، لأن المقارنة ستكون سهلة، ولكن الصعوبة تبدأ عندما تكون القيمة المرغوبة غير واضحة ومطاطة ويصعب تحديدها. مثل أن يقول الشخص "أريد جسم جميل"، هذا سيظلّ في تعاسة طول عمره لأنه لم يحدد ما هو الجمال المرغوب بدقة حتى يعرف هل وصل إليه أم لا. ومن هنا منشأ الآلام النفسية. لأنه لا يعرف ماذا يريد بالتحديد، وبالتالي كل مقارنة ستظهر له نقص، والنقص أم الألم.

فإذن يجب لمن يريد الرضا النفسي أن يعين ويحدد قيمته ورغبته بدقة، ومعنى الدقة هو أن يستطيع أن يعرف هل وصل أم لم يصل بعد إذا قارن حاله مع تصوره.

ثم فلنفرض أن الإنسان لم يقارن، ألا يعني ذلك أنه سيكون دائماً في رضى؟ نعم هذا صحيح. لأن الذي لا يقارن يعني أنه بالنسبة لنفسه يحيا في الكمال. والحياة في الكمال هي السعادة. فأقرب الطرق إلى السعادة أن لا تقارن نفسك بشيء. ولكن هل هذا ممكن؟ يمكن للأموات فقط.

الإنسان الحي يتحرك، والحركة لا يمكن أن تتولد إلا من مقارنة، لأن لكل حركة غاية، ووجود غاية يعني أن هذه الغاية مفقودة الآن، والمتحرك يريد تحصيلها، ومعنى ذلك أنه قارن ماله الآن مع حاله لو حقق الغاية، ومن هذه المقارنة تحرك. فإذن عدم المقارنة يعني عدم الحياة.

ولكن ما يمكن أن يفعله الإنسان هو أن يختار قيم بسيطة يسهل تحقيقها، وبذلك تقل فرص تعرضه للألم. فمثلاً رجل يريد منزل بسيط كريم ورجل آخر يريد قصر عظيم، أيهما أكثر عرضة للألم؟ لاشك أنه الثاني.

ولكن القيم البسيطة قد تكون جالبة للراحة ولكن أين الكبرياء؟ فالحل الوحيد هو أن تجعل رغباتك الجسمانية بسيطة كريمة، وتجعل رغباتك المعرفية عظيمة عميقة. لأن المعرفة لا ألم فيها. وآلامها لذة. فاطلب للجسم المعيشة الضرورية الكريمة، واطلب للقلب أعلى درجات المعرفة. وهذا هو أسعد من على الأرض.

وعندما يقال "لا تقارن نفسك بأحد لكي لا تتألم" فالمقصود هو أن تعمل بحسب استطاعتك ولا تطلب أكثر من ذلك لأنه من المستحيل أن يرفع الإنسان وزناً أكثر من طاقته، فمثلاً في أمور الجسم، إذا كانت لك صفة معينة كلون العين كأن تكون عينك سوداء فلا ترغب في أن تكون عينك زرقاء. نعم قد يوجد من العلم اليوم ما يمكن أن يغير لك لون عينك، ولكن ماذا لو لم تملك المال لذلك، أو كان الأمر خطير قد يصيبك بالعمى وما شابه؟ فالأمر واضح. والحق يقال إني لا أعرف أمر يصح أن يقال أنه يجب على الناس أن لا يطلبوه لأنه مستحيل. والأمور نسبية. والمهم أن تعرف أنك لو رغبت في أمر فيجب أن تدفع قيمته من نفسك. فلا أقول "لا تقارن" ولكن أقول "اعرف قبل أن تقارن هل عندك الثمن" وهذا فقط حتى لا تحتار عندما تصيبك الآلام. وهذا ليس تخويف من الحياة ولكن تذكير بحقيقتها. وانظر إلى الألم بفرحة تشفى منه، إذ الأمور بحسب العيون التي تراها بها.

هذا فيما يخص مقارنتك نفسك بنفسك. فماذا عن مقارنة الناس لغيري بي؟ أي عندما تقول الأم لابنها "انظر إلى ابن فلانة كيف يدرس وينال درجات عالية، ألا تقتدي به" أقول، هذا يشبه أن تطعن أحد بسكين في قلبه. يخطئ من يجبر الإنسان أن يقارن نفسه بشخص آخر، لأنه ليس عنده الاستعداد لتحمل هذه المقارنة. وقد يرفض قيم هذا الذي يقارنوه به. فالأحسن أن تصف الشخص فقط، ثم لو شاء المستمع أن يتخذ قيمة معينة في تصوره للكمال، فهو وما اختار. ولذلك لعل من أشد الناس كرهاً لأبويه هو الذي اعتاد أن يسمع منهم هذا النوع من المقارنات مع أبناء الجيران والأصدقاء والأقارب.

وقبل أن تقارن شخص بآخر يجب أن تتأكد أن هذا الآخر له مكانة مهمة في قلب الأول. فمثلاً لو كان صديقي يحب نبي ما، وأنا أعلم حبه لهذا النبي، فعندها أستطيع أن أقيم مقارنة بينه وبين محبوبه، لأنه غالباً سيتقبلها بصدر منشرح. وتكون محفزة له ودافعة للعمل للترقي. وكما عرفنا أن

المقارنة سبب الحركة. ولكن هل الحركة إيجابية أم سلبية، فهذا يعتمد على نوع المقارنة، ومن الذي أقامها.

(٥) ما هو أصل الرغبة في الراحة والكبر؟ عرفنا أن أصل كل رغبات الإنسان يرجع إلى رغبته في الراحة والكبر. ولكن ما أصل هذه الرغبة في الراحة والكبر. هي ليست رغبة مختارة. هي أصل كل الرغبات الأخرى، وهي سابقة عليهم كلهم. وهي في الإنسان كالقلب والعين والأنف لا شأن له في الاختيار. هي جوهر نفس الإنسان. ولذلك نجد كل الناس في كل مكان وزمان مدفوعون بهذه الرغبة في الراحة والكبر. وللاختصار سأسميها "رك"، وأقول أن "رك" هو إله كل الناس الحقيقي.

فانظر مثلاً إلى الذين يعبدون إله معين، سترى أنهم إما يطلبون الراحة أو الكبر أو كلاهما. يريدون الهرب من العذاب والفقر، ويريدون النعيم والنصر، ويريدون الفناء والعشق، يريدون النبوة والعلم. كل هذه أثواب للراحة والكبر. ولولا أن هذا الإله يوفر لهم هذه الأمور، أوعلى الأقل يعتقدون أنه يوفر أو سيوفر لهم ذلك. فتصور مثلاً لو أن الله ظهر للمسلمين وقال لهم "لن أنصركم في الدنيا، ولن أعينكم على أي شيء، ولا يوجد عذاب ونعيم في الآخرة، ولا يوجد فناء ولا عشق" هل سيعبده أحد؟ لا أظن. الآن ومع كل الوعود وأكثر الناس في غفلة، فماذا لو زالت كل الوعود التي هي ليست أكثر من منافع شخصية للعابدين؟ هذا معنى أن "رك" هو إله كل الناس الحقيقي، وهو إله كل الناس منذ أن وجد الإنسان. هو الإله الذي يحاول بعض الناس طمسه أو تشويه صورته أو احتكاره. فكل البشر عبّاد "رك".

الذين يسألون "من خلق الله" أغبياء، السؤال هو "من خلق رك"؟ كل الآلهة سماويين أو أرضيين ما هم إلا تجليات الإله الأعظم "رك". وبما أن هذا الإله ظهر مع ظهور الخلق، فسؤالنا هو "ما هو أصل رك"؟ لكي نعرف الأصل الحقيقي الأول فإني مضطر أن أخوض في مبحث إلهي وجودي لعل خير مكان له هو الكتب العرفانية والفلسفية. ولكن بما أن كل شيء متصل، وبما أننا لن نستطيع أن نعرف الجوهر إلا بالغوص، فلا بأس بذكر الأمر على سبيل الاختصار الحسن.

الوجود المطلق الواحد هو الحقيقة الوحيدة والأولى والنهائية، بل لا يجوز أن نقول "حقيقة" لأن ما كان حق فله ضد وهو الباطل، ولكن هو هو. وكل الممكنات فيه كالعلم فينا، وبما أن كل المخلوقات منه وفيه وما هي إلا أحد الممكنات، وبما أن الممكنات هي عين الوجود اللانهائي، والوجود اللانهائي عينها، فهي من نفس جوهره الأحدي. فإذن كل المخلوقات من نفس جوهر الوجود المطلق. وهذا أساس كون كل نفس ترغب في الراحة والكبر في واقعها الظاهري والباطني في عالم الخلق.

فالوجود اللانهائي هو الكبير التام، إذ لا حد له لأنه أعلى من الحدود التي هي من خلقه وتقديره. وبما أنه الكبير التام فإذاً هو في راحة تامة، إذ التعب لا يتصور إلا من الذي يتحرك من مكان إلى مكان، بكل الاعتبارات، وبما أنه لا يمكن تصور تحرك الوجود من مكان إلى مكان، لأنه لا

يوجد "مكان" إلا وهذا المكان فيه وبه ومنه، إذ هو لانهائي، غير محدود. فلا يخلو منه مكان لأنه هو عين كل مكان، ولولاه لما كان أي مكان.

فذات الوجود لها الكبرياء التام وبالتالي الراحة التامة. ولذلك تسعى كل نفس للكبر للوصول إلى الراحة. هذا هو الأساس الأصلي لجوهر النفس.

أما الأساس الجسماني، فهو لكون النفس ترى أن الجسم الأكبر أقوى، والأقوى يسخّر الأضعف، والتسخير يجلب الراحة، إذ الناس ستعمل لي أعمالي. فهنا هو تجلّي الأصل الأول في الفرع. في الوجود الكبرياء ثم الراحة، وكذلك في الجسم الكبرياء لأجل الراحة.

أما الأساس العلمي، فلأن الأكبر في الأمور العلمية هو الذي يعلم أكثر، وبالتالي يخطئ أقل، وذلك يعني النجاح. والنجاح يجلب الراحة.

فالتدرج الوجودي والجسماني والعلمي واحد، الكبرياء والراحة. فهذا جوهر الوجود كله بكل مظاهره. ولذلك أي كسر الكبرياء لا تنفع معه راحة، فلا يمكن أن توجد السعادة في إنسان مذلول في نفسه. وكل نظام أياً كان يجب أن يقوم على هذه القاعدة الكبرى، تحقيق الكبر والراحة، وهذا نظام لا يمكن أن يرفضه الناس أبداً. من ينكر أن يكون كبيراً مرتاحاً.

....انتهى والحمد لله.